الباب الثاني

منهجه في تقرير مسائل العقيدة والإيمان

وفيه ثلاثة فصول :

الفصل الأول : منهجه في تقرير العقيدة

الفصل الثاني : منهجه في الدعوة إلى العقيدة .

الفصل الثالث : منهجه في تقرير مسائل الإيمان

الفصل الأول

منهجه في تقرير العقيدة

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول : مصادر تلقي العقيدة عند سيد قطب .

المبحث الثاني : منهجه في الاستدلال وتقرير مسائل العقيدة .

المبحث الثالث : موقفه من الفلسفة وعلم الكلام .

المبحث الرابع :موقفه من قضية تطور العقيدة ومقارنة الأديان.

توطئة

في هذا الفصل عرض لمصادر تلقي العقيدة عند سيد قطب ، وكيفية الاستمداد منها، وما هي نظرته للمناهج المخالفة ، وذلك من خلال صريح قوله ، وواضح عباراته وطريقته في التأصيل والدعوة لما يعتقده ، ومن خلال نظرته النقدية لمناهج المخالفين ، جاعلا عبارته تتحدث عن ذلك قدر المستطاع ، وذلك من خلال المباحث الآتية :

المبحث الأول

مصادر تلقي العقيدة عند سيد قطب

تتمثل مصادر التلقي عند أهل السُّنَّة والجماعة لقضايا الاعتقاد في الوحي كتابًا وسُنَّة ، ويلحق بها الإجماع والعقل السليم والفطرة المستقيمة .

وفي هذا المبحث نتعرف على موقف سيد قطب – رحمه الله – من هذه المصادر من خلال المطالب الآتية :

المطلب الأول : القرآن الكريم .

المطلب الثاني : السُّنَّة النبوية .

المطلب الثالث : الفطرة .

المطلب الرابع : العقل .

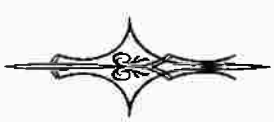

المطلب الأول

القرآن الكريم

تعريف القرآن الكريم :

١- القرآن في اللغة : مصدر من قرأ ، يقرأ، قراءةً وقرآنًا ، بمعني: تلا ، وهو المأثور عن السلف، فقد فسر ابن عباس[١] - رضي الله عنهما - قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴾[٢]، بمعنى أن تقرأه ، أو قراءته ، ورجحه الطبري[٣] - رحمه الله - فقال : "والواجب أن يكون تأويله على قول ابن عباس من التلاوة والقراءة وأن يكون مصدرًا من قول القائل : قرأت القران "[٤] .

وقيل: إنه مشتق من الجمع والضم ، يقال : قرأت الشيء ، فهو قرآن : أي جمعته وضممت بعضه إلى بعض . وسُمي القرآن قرآنًا لأنه يجمع السور فيضمها ، أو لأنه جمع القصص والأمر والنهي والوعد والوعيد ، والآيات والسور، بعضها إلى بعض[٥].

والأول أرجح .

٢-القرآن في الاصطلاح : " هو كلام الله تعالى ، المنزل على محمدﷺ المكتوب

---

(١)هو : عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ، ابن عم رسول اللهﷺ ، صحابي جليل ، حبر الأمة ، وترجمان القرآن ، فضائله ومناقبه كثيرة ، ولد قبل الهجرة بثلاث سنوات في الشعب ، وتوفي بالطائف سُنَّة ٦٨هـ ، انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر ، دار الكتب العلمية - بيروت - ط١ ، عام ١٩٩٥م ، ٣/ ٦٦ ، والإصابة لابن حجر - ٤/ ١٢١ .

(٢) سورة القيامة ، الآية ١٧ .

(٣) هو : هو :محمد بن جرير بن يزيد الطبري ، أبو جعفر، ولد في طبرستان سُنَّة ٢٢٤هـ واستوطن بغداد ،كان إمامًا حافظًا وفقيهًا مفسرًا ، له عدة مؤلفات من أشهرها تفسيره المسمى جامع البيان ، توفي سُنَّة ٣١٠هـ ، انظر: سير أعلام النبلاء ١٤/ ٢٦٧ والأعلام ، للزركلي ٦/ ٦٩.

(٤) الأثر رواه البخاري في صحيحه ١/ ٦ ، انظر : صحيح الإمام البخاري ،دار ابن كثير ،دمشق ، ط٥ عام ١٤١٤هـ١/ ٦ ورجحه الإمام الطبري في تفسيره ١/ ٦٧ ، انظر : تفسير الطبري ، دار الكتب العلمية بيروت. ط١ عام ١٤١٢هـ ، وبه قال اللغوي اللحياني ، انظر : الإتقان في علوم القران، للسيوطي ، دار الكتب العلمية بيروت .ط١ عام ١٤٠٧هـ ١/ ١١٢ -١١٣

(٥) الصحاح ، لإسماعيل بن حماد الجوهري - تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين- بيروت - ط٢ ،عام ١٣٩٩، ١/ ٦٥ ، ولسان العرب لابن منظور ، ٧٨-٧٩ . الإتقان للسيوطي ١/ ١٤٦ ،١٤٧ .

في المصاحف ، المنقول بالتواتر ، المتعبد بتلاوته ،للهداية والإعجاز "[١] .

حجية القرآن : القرآن الكريم عند جميع المسلمين حجة في جميع قضايا الدين الاعتقادية والعملية الإنشائية والخبرية ، وهو الفرقان بين الحق والباطل ، كما قال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾[٢]. أقام الله به الحجة على العالمين جميعًا فكل من بلغه هذا القرآن فقد أنذر به،وقامت عليه حجة الله [٣].

وقد اعتمد سيد قطب – رحمه الله – على القرآن الكريم كمصدر رئيس في استمداد وبحث مسائل العقيدة والاستدلال عليها .

* حيث عاش حياته الإسلامية في ظلال القرآن وهي نعمة عظيمة ترفع العمر وتزكيه وتباركه ، يقول – رحمه الله – : " لقد مَّن الله علي بالحياة في ظلال القرآن فترة من الزمان ، ذقت فيها من نعمته ما لم أذق في حياتي .. لقد عشت أسمع الله يتحدث إلي بهذا القرآن .. وعشت – في ظلال القرآن – أنظر من علو إلى الجاهلية التي تموج في الأرض ،وإلى اهتمامات أهلها الهزيلة .. عشت أتملى ذلك التصور الكامل الشامل الرفيع النظيف للوجود وغاياته .. وأحس التناسق الجميل بين حركة الإنسان كما يريدها الله ، وحركة الكون .. وأرى الوجود أكبر بكثير من ظاهره المشهود .. وأرى الإنسان أكرم بكثير من كل تقدير عرفته البشرية من قبل للإنسان ومن بعد .. وبالتالي عشت هادئ النفس ، مطمئن السريرة ، قرير الضمير، أرى يد الله في كل حادث ، عشت في كنف الله وفي رعايته ، عشت استشعر إيجابية صفاته تعالى وفاعليتها..وانتهيت إلى يقين جازم حاسم أنه لا صلاح لهذه الأمة، ولا راحة لهذه البشرية إلا بالرجوع إلى الله ومنهجه الذي رسمه للبشرية في كتابه الكريم "[٤].

* وبناءً على ذلك فقد وقف سيد قطب – رحمه الله – كثيرًا في ظلال القرآن

---

(١) إرشاد الفحول ، للإمام الشوكاني، مؤسسة الكتب الثقافية – بيروت ، ط٤ ، ١٤١٤هـ ، ص ٦٢ . ومناهل العرفان ، للزرقاني ، دار الفكر – بيروت ، ط عام ١٤٠٨هـ ،١/ ١٩ ، ومباحث علوم القرآن، لمناع القطان ، مكتبة المعارف ، الرياض ، ط ١ ، عام ١٤١٣ هـ ، ص١٧

(٢) سورة الفرقان ، الآية ١ .

(٣) مختصر الصواعق المرسلة . للموصلي ، دار الكتب العلمية – بيروت – ط١ – عام ١٤٠٥هـ ، ص ٧٥ .

(٤) في ظلال القرآن – سيد قطب – ١ / ١١-١٥ بتصرف .

الكريم يتأمله ، ويقف عند آياته ، ويربط بينه وبين الواقع ، فنراه كثيرًا ما يتحدث عن القرآن الكريم وخصائصه وعن صفاته ووظيفته ، وعن كيفية الانتفاع به في الحياة ، ووجوه الإعجاز والجمال الفني في آياته ، وطريقة القرآن في عرض العقيدة والأحداث عمومًا .

* لقد نظر سيد قطب – رحمه الله – إلى القرآن الكريم على أنه " كتاب هذه الدعوة وروحها وباعثها .. وقوامها وكيانها ، وحارسها وراعيها وبيانها وترجمانها، وهو دستورها ومنهجها ، وهو في النهاية المرجع الذي تستمد منه الدعوة – كما يستمد منه الدعاة – وسائل العمل ومناهج الحركة ، وزاد الطريق " [١] .

" كما أنه كتاب هذه الأمة الحي ، ورائدها الناصح ، ومدرستها التي تلقت فيها دروس حياتها ... وهو الرائد الحي، الباقي بعد وفاة الرسول ﷺ لقيادة هذه الأمة وتربيتها وإعدادها لدور القيادة الراشدة الذي وعدها به كلما اهتدت بهديه ، واستمسكت بعهدها معه ، واستمدت منهج حياتها كله من هذا القرآن ، واستعزّت به واستعلت على جميع المناهج الأرضية " [٢] .

الحكمة من إنزال القرآن: اعتنى سيد قطب–رحمه الله – كثيرًا ببيان الحكمة من إنزال القرآن ، والمتمثلة في:" كونه هداية عامة للناس، وإنذارًا للبشرية وتذكيرًا" [٣]، " وبيانًا وتفصيلًا لكل شيء بحيث لا يحتاجون إلى مرجع آخر وراءه " [٤]، " أنزله الله منهجًا واضحًا كاملًا ، صالحًا لإنشاء حياة إنسانية نموذجية في كل بيئة وفي كل زمان " [٥]،" وجعله فرقانًا بين الحق والباطل والهدى والضلال ، بما فيه من تفرقة بين نهج في الحياة ونهج وبين عهدٍ للبشرية وعهد " [٦] .

ولما كان القرآن كذلك فقد تكفل الله بحفظه : " فهو باقٍ محفوظ لا يندثر ولا يتبدل . ولا يلتبس بالباطل ، ولا يمسه التحريف .. ونحنُ ننظر اليوم من وراء

(١) في ظلال القرآن ١/ ٣٤٨ .
(٢) المصدر السابق ١/ ٢٦١.
(٣) المصدر السابق ٣/ ١٢٥٤.
(٤) المصدر السابق ٣/ ١٢٣٨.
(٥) المصدر السابق ٥/ ٣٢٠٨ .
(٦) المصدر السابق ، ٥/ ٢٥٤٧ .

القرون إلى وعد الله الحق بحفظ هذا الذكر ، فنرى فيه المعجزة الشاهدة بربانيته.. رغم حرص أعداء الإسلام على تحريفه ورغم ضعف أمة الإسلام في كثير من مراحل التاريخ "[١].

وإذا كانت الحكمة من إنزال القرآن – كما سبق – هي الاهتداء به ، فإن ذلك يتوقف على فهم معانيه ، فما هو منهج سيد قطب – رحمه الله – في هذا الصدد ؟ .

منهج سيد قطب وطريقته في فهم القرآن الكريم :

يرى سيد قطب- رحمه الله – أن فهم القرآن الكريم لا يتأتى إلا بعدة أمور منها:

١ــ وجوب الإنصات والاستماع للقرآن : وهذا الحكم عام في الصلاة وغيرها، حيثما قرئ ، فذلك هو الأليق بجلال القرآن وجلال قائله ، فإذا قال الله . أفلا يستمع الناس وينصتون.. والإنصات أرجى لأن تعي النفوس وتتأثر وتستجيب "[٢] .

٢ــ العكوف على القرآن بوعي وتدبر : لا مجرد تلاوة وترانيم ، فتدبر القرآن يزيل الغشاوة ويفتح النوافذ ، ويسكب النور ، ويحرك المشاعر ، ويستجيش القلوب، ويخلص الضمائر وينشئ حياة للروح تنبض بها وتشرق وتستنير "[٣] .

" إن هذا القرآن ينبغي أن يقرأ وأن يتلقى من أجيال الأمة المسلمة بوعي ، وينبغي أن يتدبر على أنه توجهات حية ، تنزل اليوم لتعالج مسائل اليوم ولتنير الطريق إلى المستقبل ، لا على أنه مجرد كلام جميل يرتل ، أو على أنه سجل لحقيقة مضت ولن تعود "[٤] .

٣ــ استصحاب الأحوال والملابسات المصاحبة للنزول : وذلك لأن سمة " الواقعية الحركية " من أبرز سمات القرآن الكريم ،فهي مفتاح التعامل مع القرآن وفهمه وإدراك مراميه وأهدافه .. لذا لا بد من استصحاب الأحوال والملابسات والظروف والحاجات والمقتضيات الواقعية العملية التي صاحبت نزول النص القرآني .. لإدراك وجهة النص وأبعاد مدلولاته ، ولرؤية حيويته وهو يعمل في

(١) المصدر السابق ، ٤/ ٢١٢٧-٢١٢٨ بتصرف .
(٢) المصدر السابق ، ٣/ ١٤٢٥ بتصرف .
(٣) في ظلال القرآن ، ٣/ ١٤٢٦ ، ٦/ ٣٢٩٧ .
(٤) المصدر السابق ، ١/ ٢٦١.

وسط حي ويواجه حالة واقعة ، كما يواجه أحياء يتحركون معه أو ضده ، وهذه الرؤية ضرورية لفقه أحكامه وتذوقها ، كما هي ضرورية للانتفاع بتوجيهاته كلما تكررت تلك الظروف والملابسات...وعلى الأخص فيما يواجهنا اليوم ونحن نستأنف الدعوة الإسلامية "[١] .

٤ـ تلقي القرآن الكريم للتنفيذ والعمل والحركة به في الحياة :يقول سيد: " فلن يُفهم القرآن إلا وهو يُدرَس في مجاله الحركي الهائل ، ولن يفهمه إلا أناسيٌ يتحركون به" [٢]، " والذين يتلمسون معاني القرآن ودلالاته وهم قاعدون.. يدرسونه دراسة بيانية أو فنية لا يملكون أن يجدوا من حقيقته شيئاً " [٣] ، " إن هذا القرآن لا يمنح كنوزه إلا لمن يقبل عليه بهذه الروح – روح المعرفة المنشئة للعمل –إنه لم يجيء ليكون كتاب متاع عقلي ، ولا كتاب أدب وفن ، ولا كتاب قصةٍ وتاريخ – وإن كان هذا كله من محتوياته – إنما جاء ليكونَ منهاج حياة " [٤] .

ويقول ايضا: " ولن ننتفع بهذا القرآن حتى نقرأه لنلتمس عنده توجيهات حياتنا الواقعة في يومنا وفي غدنا ، كما كانت الجماعة المسلمة الأولى تقرأه لتلتمس عنده التوجيه الحاضر في شؤون حياتها الواقعة، وحين نقرأ القرآن بهذا الوعي سنجد عنده ما نريد ، وسنجد فيه عجائب لا تخطر على البال الساهي ، سنجد كلماته وعباراته وتوجيهاته حية تنبض، وتتحرك وتشير إلى معالم الطريق ، .. وسنجد عندئذٍ في القرآن متاعًا وحياة " [٥] .

" ومنهج التلقي للتنفيذ والعمل هو الذي صنع الجيل الأول ...لذا لا بد أن نرجع إليه بشعور التلقي للتنفيذ والعمل ، لا بشعور الدراسة والمتاع ، نرجع إليه لنعرف ماذا يطلب منا أن نكون ، لنكون " [٦] .

---

(١) المصدر السابق ، ٤/ ٢١٢١-٢١٢٢ .
(٢) المصدر السابق ، ٣/ ١٧١٢ .
(٣) المصدر السابق ، ٤/ ١٨٦٤ .
(٤) معالم في الطريق – ص١٨ ، وفي ظلال القرآن ٤/ ١٩٤٨.
(٥) في ظلال القرآن ، ١/ ٢٦١ بتصرف .
(٦) معالم في الطريق ، ص١٩ ، ٢٠ بتصرف .

٥ـ الإقبال على القرآن الكريم بدون مقررات سابقة :

يقول سيد: " فالمنهج الصحيح في استلهام القرآن ألاَّ نواجهه بمقررات سابقة ، عقلية كانت أو شعورية ، ونحاكم إليها نصوصه أو نستلهم معاني هذه النصوص وفق تلك المقررات السابقة ، لقد جاء النص القرآني ابتداءً لينشئ المقررات الصحيحة التي يريد الله أن تقوم عليها تصورات البشر وأن تقوم عليها حياتهم ، فليست هناك إذا مقررات سابقة نحاكم إليها كتاب الله ، إنما نحن نستمد مقرراتنا من هذا الكتاب ابتداءً ، ونقيم على هذه المقررات تصوراتنا ومقرراتنا وهذا وحده هو المنهج الصحيح في مواجهة القرآن الكريم ، وفي استلهام خصائص التصور الإسلامي ومقوماته "[١]. " وهذه هي القاعدة المأمونة في مواجهة النصوص القرآنية وفهمها "[٢] .

٦ـ الحفاظ على جو النص القرآني : وذلك من خلال " استبعاد المطولات والاستطرادات التي تحول دون فهم القرآن،وعدم الخوض في القضايا والأمور الخلافية سواءً في العقيدة أو في الفقه أو في التاريخ والقصص ، لأنها تطمس معالم الجمال القرآني ، وتُعَقـدُ فهمه "[٣] ، " فلابد أن تُردَّ إلى القرآن جدَّتُه ، وأن يستنقذ من ركام التفسيرات اللغوية والنحوية والفقهية والتاريخية والأسطورية "[٤] .

٧ـ ترك الإسرائيليات وعدم الاعتماد عليها في فهم النص القرآني : تمشيًا مع منهج الإسلام في صيانة الطاقة العقلية أن تُبَدَّد في غير ما يفيد ، وفي ألا يقفو المسلم ما ليس له به علم وثيق "[٥].

ويلحق بالإسرائيليات كتابات غير المسلمين عمومًا حول قضايا الإسلام وعلومه، " فالإسلام يتسامح في أن يتلقى المسلم عن غير المسلم أو عن غير التقي من المسلمين في علم الكيمياء البحتة أو الطبيعة أو الفلك أو الطب أو الصناعة أو الزراعة أو الأعمال الإدارية والكتابية وأمثالها ، وذلك في الحالات التي لا يجد فيها

---

(١) خصائص التصور الإسلامي ، سيد قطب

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٣٠، ٣٩٧٩ .

(٣) التصوير الفني في القرآن ، سيد قطب ، ص ٧

(٤) مشاهد القيامة في القرآن ، سيد قطب ، ص ٨ .

(٥) في ظلال القرآن ، ٤/ ٢٢٦٥ .

مسلما تقيًا يأخذ عنه في هذا كله ..لكنه لا يتسامح في أن يتلقى أصول عقيدته ولا مقومات تصوره ، ولا تفسير قرآنه وحديثه وسيرة نبيه ، ولا منهج تاريخه وتفسير نشاطه ، ولا مذهب مجتمعه ، ولا نظام حكمه ، ولا منهج سياسته ، ولا موجبات فنه وأدبه وتعبيره ..الخ من مصادر غير إسلامية ، ولا أن يتلقى من غير مسلم يثق في دينه وتقواه في شيء من هذا كله " [١] .

وهذا الموقف بناءً على تجربة سيد العلمية التي عاشها ، حيث اطَّلَعَ على ما كتبه غير المسلمين حول الإسلام في معظم حقول المعرفة الإنسانية ، وعرف الجاهلية على حقيقتها ، وتبينت له أهداف اليهود والنصارى ومن والاهم وعداوتهم للإسلام والمسلمين ، ورغبتهم في إضلالهم ، وقيام مناهجهم على هذا العداء ، ومن ثم يقرر أن من الغفلة المزرية الاعتماد على مناهج الفكر الغربي وعلى نتائجه كذلك في الدراسات الإسلامية [٢] .

٨ـ جمع نصوص القرآن الواردة في الموضوع الواحد : " للوصول إلى فهم متكامل وإزالة ما قد يبدو من تعارض ظاهري بين النصوص ، فالقرآن كله كلامٌ الله ، ولن يعارض بعضه بعضًا، فلا بد إذن أن تكون هناك نسبة معينة بين هذا القول وذاك" [٣] .

" فالجمع بين النصوص والتنسيق بين مدلالوتها هو طريق الخلاص مما آثاره المتكلمون من الفرق الإسلامية والفلاسفة من جدلٍ ... فالتصور الإسلامي الصحيح هو الذي تنشئه النصوص القرآنية مجتمعة ، وهو تصور لا يوجد عندما تؤخذ النصوص فرادى وفق أهواء الفرق والنحل ، وعندما توضع بعضها في مواجهة بعضها الآخر على سبيل الاحتجاج والجدل " [٤] .

وقد طبق سيد قطب – رحمه الله – هذا المنهج في فهم النصوص في كثير من القضايا في تفسيره ،كقضية تعدد الزوجات ،وقضية الانتفاع بالعمل في الآخرة ،

---

(١) معالم في الطريق ، ص ١٤٣ والعدالة الاجتماعية – سيد قطب – دار الشروق ، بيروت ، طبعة عام ١٤١٥ هـ ص ٢٠٣ .

(٢) معالم في الطريق ، ص ١٤٣ – ١٤٨ بتصرف

(٣) في ظلال القرآن ٢/ ٧١٩ الهامش .

(٤) في ظلال القرآن ، ٣/ ١٤٠٠ بتصرف

وموقف النصارى من المسلمين ، وقضايا القدر والجبر والاختيار، وغيرها[١] .

القرآن مصدر العقيدة الأساس :

يرى سيد قطب – رحمه الله – أن القرآن الكريم هو المصدر الأساسي في استمداد وبحث مسائل العقيدة والاستدلال عليها ، وأن منهج القرآن في عرض وتقرير العقيدة خصوصًا ، ومنهجه في كل شئون الحياة عمومًا ، هو المنهج الوحيد الذي ينبغي أن يلتزم به البشر باعتبار ذلك فرضًا لا خيار فيه " فالاحتكام إلى منهج الله في كتابه ليس نافلة ولا تطوعًا ولا موضع اختيار، إنما هو الإيمان .. أو فلا إيمان "[٢] .

ويقرر – رحمه الله – وجوب التلقي في أمور العقيدة وغيرها عن الوحي كمصدر وحيد في كثير من المواضع في كتاباته ، مما جعل من الصعوبة نقل كلامه كله في هذا الباب ، ونظرًا لذلك فسأكتفي بإيراد مجموعة من النصوص على سبيل التمثيل :

١ – يقول – رحمه الله – " تجيء العقيدة من مصدرها الإلهي، متمثلة في تبليغ الرسول وعمله – على عهد النبوات – ومتمثلة في دعوة الداعية بما جاء من عند الله وما بلّغه رسوله على مدار الزمان بعد ذلك " [٣] .

٢ – ويقول أيضًا : " فإنه لا ينبغي لبشر أن يتلقى في أمر عقيدته إلا من الله ، ... فلا عقيدة إلا ما يتنزل من عند الله ، وما يأتي بسلطان من عنده ، وإلا فهو واهن ضعيف " [٤] .

٣ – ويقول أيضًا : " ومن ثم كان هناك مصدر واحد يتلقى منه البشر التصور الصادق الكامل الشامل لحقيقة الوجود كله ، ولحقيقة الوجود الإنساني ، ولغاية الوجود كله ، ولغاية الوجود الإنساني ، ومن هذا التصور يمكن أن ينبثق المنهج الوحيد الصحيح القويم ..مصدر واحد هو مصدر الرسالات ، وما عداه ضلال وباطل " [٥] .

---

(١) ينظر تفاصيل ذلك في: في ظلال القرآن ١/ ٥٨٢ ، ٢/ ٧١٩ ، ٩٦٠، ١٠٦٥-٣/ ١٨٢١ ، ١٤٠٠-٦/ ٣٩٦٦.
(٢) في ظلال القرآن – سيد قطب ، ١/ ١٥ .
(٣) المصدر السابق – سيد قطب ، ٤/ ٢٠٠٧.
(٤) المصدر السابق ، ٥/ ٢٧٧١ .
(٥) في ظلال القرآن ، ١/ ٢٨١ .

٤- في ظلال قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [١]. يقول سيد: " فالآية تندد بتلقي شيءٍ من أمر العقيدة عن غير الله " [٢].

٥- ويقول أيضا " وليس لمسلم أن يتلقى إلا من الله، وليس له أن يدع العلم المستيقن إلى الهوى المتقلب، وما ليس من عند الله فهو الهوى بلا تردد " [٣]. "إن أمر التلقي أكبر من أن يعتمد المسلم فيه على رأي، إنما هو قول الله سبحانه، وقول نبيه ﷺ نُحكّمه في هذا الشأن، ونرجع فيه إلى الله وإلى الرسول " [٤].

٦-عند تعليقه على قصة تحويل الكعبة والدروس المستفادة منها يقول: " ثم هو نهي عن التلقي من غير الله. ومنهجه الخاص الذي جاءت هذه الأمة لتحقيقه في الأرض، فينبغي لها أن تستمد تقاليدها كما تستمد عقيدتها من المصدر الذي اختارها للقيادة.. " [٥].

٧- في ظلال قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [٦]. يقول سيد: " وهذا تقرير لينابيع الهدى في هذه الأرض، فهدى الله للبشر يتمثل فيما جاءت به الرسل، وينحصر المستيقن منه والذي يجب إتباعه في هذا المصدر الوحيد " [٧].

٨- في ظلال قوله تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۖ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [٨]، يقول سيد: " لقد تمت كلمة الله سبحانه صدقًا - فيما قال وقرر- وعدلا- فيما شرع وحكم - فلم يبقَ بعد ذلك قولٌ لقائلٍ في عقيدةٍ أو تصورٍ أو أصلٍ أو مبدأ أو قيمةٍ أو ميزان " [٩].

(١) سورة البقرة، الآية ١٧٠.
(٢) في ظلال القرآن، ١/ ١٥٥
(٣) المصدر السابق، ١/ ١٣٤
(٤) معالم في الطريق، ص ١٤٤.
(٥) في ظلال القرآن، ١/ ١٢٨-١٢٩ ، بتصرف.
(٦) سورة الأنعام، الآية ٨٨
(٧) في ظلال القرآن، ٢/ ١١٤٤.
(٨) سورة الأنعام، الآية ١١٥.
(٩) في ظلال القرآن ٣/ ١١٩٥.

٩- عند حديثه عن خصائص التصور الإسلامي يقرر بأنه "تصور رباني أي مأخوذ من مصدر رباني هو القرآن الكريم والسُّنَّة الشريفة "[١].

١٠- عند حديثه عن نزول عيسى - عليه السلام - آخر الزمان قال : "وهو غيب من الغيب الذي حدثنا عنه الصادق الأمين وأشار إليه القرآن الكريم ، ولا قول فيه لبشر إلا ما جاء في هذين المصدرين الثابتين إلى يوم القيامة "[٢].

أهمية حصر مصدر التلقي في الوحي :

تحدث سيد قطب كثيرًا عن أهمية حصر مصدر التلقي في الوحي ويمكن إجمالها فيما يأتي :

١- أنه من لوازم التوحيد ومدلولات الشهادتين :

يقول سيد - رحمه الله - : " وأول ما يلازم حقيقة التوحيد أن تتوحد الربوبية، فتتوحد العبودية لا عبودية إلا لله ،ولا طاعة إلا لله ، ولا تلقي إلا عن الله ، فليس إلا لله تكون العبودية وليس إلا لله تكون الطاعة ، وليس إلا عن الله يكون التلقي .. التلقي في التشريع ، والتلقي في القيم والموازين ، والتلقي في الآداب والأخلاق .. والتلقي في كل ما يتعلق بنظام الحياة البشرية .. وإلا فهو الشرك أو الكفر "[٣].

ويقول أيضًا : " وكل من ينطق بالشهادتين : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله لا يقال له إنه شهد إلا أن يؤدي مدلول هذه الشهادة ومقتضاها ، ومدلولها هو ألا يتخذ إلا الله إلهًا ، ومن ثم لا يتلقى الشريعة إلا من الله ، فأخص خصائص الإلوهية التشريع للعباد ، وأخص خصائص العبودية التلقي من الله .. ومدلولها كذلك ألا يتلقى من الله إلا عن محمد ﷺ بما أنه رسول الله ، ولا يعتمد على مصدر آخر للتلقي إلا هذا المصدر "[٤].

٢- أنه سبب لصلاح الأرض وراحة البشرية :

يقول - رحمه الله - : " .. إنه لا صلاح لهذه الأرض ، ولا راحة لهذه البشرية، ولا

---

(١) مقومات التصور الإسلامي ص ١٨ ، وخصائص التصور الإسلامي ص ٤٦ ، والعدالة الاجتماعية ص ٢٠٠ .
(٢) في ظلال القرآن ، ٥/ ٣١٩٩ .
(٣) المصدر السابق ، ١/ ٤٠٦ .
(٤) في ظلال القرآن ، ١/ ٤٨١- ٤٨٢ .

طمأنينة لهذا الإنسان ، ولا رفعة ولا بركة ولا طهارة ، ولا تناسق مع سنن الكون وفطرة الحياة .. إلا بالرجوع إلى الله .. والرجوع إلى الله .. له صورة واحدة وطريق واحد .. إنه العودة بالحياة كلها إلى منهج الله الذي رسمه للبشرية في كتابه الكريم.. إنه تحكيم هذا الكتاب وحده في حياتها والتحاكم إليه وحده في شئونها وإلا فهو الفساد في الأرض ، والشقاوة للناس والارتكاس في الحمأة ، والجاهلية التي تعبد الهوى من دون الله " (١) .

٣- أنه يبعد المسلم عن الهوى والوهم والخرافة :

يقول - رحمه الله - : " إن الطريق الأمثل في فهم القرآن وتفسيره وفي التصور الإسلامي وتكوينه، أن ينفض الإنسان من ذهنه كل تصور سابق .. وأن يبنى مقرراته حسبما يصور القرآن والحديث حقائق هذا الوجود .... وهذا التصور هو الذي يميز المسلم ويقف به وسطًا بين الوهم والخرافة ، وبين الإدعاء والتطاول ، ومصدره هو القرآن والسُّنَّة " (٢) .

٤- أنه سبب لوحدة المسلمين فكرًا وسلوكًا :

يوضح سيد - رحمه الله- أن اقتصار الصحابة - رضوان الله عليهم - على القرآن وحده في التلقي - باعتبار أن حديث النبيﷺ وهديه أثر من آثار القرآن - كان سببًا في وحدة ذلك الجيل وتفرده ، حيث حرص الرسولﷺ على أن يقصر النبع الذي يستقي منه ذلك الجيل .. في فترة التكوين الأولى .. على كتاب الله وحده لتخلصنفوسهم له وحده ، ويستقيم عودهم على منهجه وحده ، ولم يكن ذلك عن فقر في الحضارات والثقافات العالمية حوله ، بل كان ذلك عن تصميم مرسوم ونهج مقصود ، فكان ذلك الجيل الفريد الموحد فكرًا وسلوكًا.

ولما اختلطت الينابيع بعد ذلك، ودخلت الفلسفة والمنطق والأساطير والإسرائيليات ورواسب الحضارات والثقافات ، وعلم الكلام كان ذلك سببًا في الاختلاف والتفرق بعد جيل الصحابة (٣) .

---

(١) المصدر السابق ، ١/ ١٥ بتصرف يسير .
(٢) المصدر السابق ، ٦/ ٣٧٣١ .
(٣) ملخص من فصل جيل قرآني فريد من كتاب - معالم في الطريق ، ص١٤ - ١٧ .

المطلب الثاني

السُّنَّة النبوية

السُّنَّة النبوية الشريفة هي المصدر الثاني من مصادر التلقي عند أهل السُّنَّة والجماعة .

والسُّنَّة في اللغة : تعني الطريقة والسيرة ، حسُنَّة كانت أو سيئة [١] .

أما السُّنَّة في اصطلاح العلماء : فيختلف معناها باختلاف نوع العلم الذي يشتغلون به :

١ - فالسُّنَّة عند المحدثين : ما أثر عن النبيﷺ من قول أو عمل أو تقرير أو صفة خُلُقية أو خَلْقية أو سيرة ، سواء كان ذلك قبل البعثة أم بعدها[٢] ، إذ غرضهم معرفة ما كان عليه النبيﷺ في أحواله كلها ، سواءً أفاد حكمًا شرعيًا أ م لم يفد [٣] .

٢- والسُّنَّة عند الفقهاء : ما ثبت عنهﷺ من حكم هو دون الفرض والواجب[٤] .

٣- والسُّنَّة عند الأصوليين: " ما نقل عن النبيﷺ من قول أو فعل أو تقرير " [٥] . حيث إنهم عنوا بمصادر الشريعة ، ومناهج استنباط الأحكام وأخذها من النصوص ، فنظروا إلى السُّنَّة من جهة كونها مصدرًا أو دليلًا ، ولهذا يطلقون عليها اسم الدليل [٦] ، وهذا هو المراد هنا . كما تطلق السُّنَّة في مقابل البدعة، ويراد بها ما هو مشروع دون ما هو مبتدع فتشمل كل ما ثبت بالدليل من كتاب أو سُنَّة .

---

(١) لسان العرب لأبن منظور٦/ ٣٩٩ ، مختار الصحاح للرازي ، طبعة عام ١٩٨١م ،دار الفكر ، بيروت، ص٣١٧.

(٢) السُّنَّة ومكانتها في التشريع، د/ مصطفى السباعي- المكتب الإسلامي - بيروت - ط٢ عام ١٣٩٨هـ ، ص٤٧

(٣) أصول الحديث لمحمد عجاج الخطيب ، دار المنارة ، جده ، ط٦، ١٤١٤هـ ، ص ٢٣ .

(٤) العدة في أصول الفقه للقاضي أبي يعلى محمد بن الحسين الفراء ، تحقيق د/ أحمد المباركي ، مؤسسة الرسالة - بيروت ، ط١ عام ١٤٠٠هـ ، ١/ ١٦٦ . وأصول الحديث لمحمد عجاج الخطيب ، ص ٢٣.

(٥) الإحكام في أصول الأحكام للآمدي ، المكتب الإسلامي ، دمشق ، ط٢ عام ١٤٠٢ ، ١/ ١٦٩، وإرشاد الفحول للشوكاني ، ص٦٧ .

(٦) الإحكام للآمدي ١/ ١٦٩ .

موقف سيد قطب من السُّنَّة : ومن خلال سبر مؤلفات سيد قطب ، تبين لي أن له موقفين من السُّنَّة النبوية : الأول إيجابي، والآخر سلبي ، وبيان ذلك فيما يأتي:

أولا : موقف سيد قطب الإيجابي من السُّنَّة : ويتمثل ذلك في الآتي:

١ـ **اعتبار الكتاب والسُّنَّة مصدرا الدين الإسلامي** : حيث يقرر سيد قطب – رحمه الله – أن الدين الإسلامي له مصدران هما الكتاب والسُّنَّة ، خلافًا لمن يقول أن الإسلام هو القرآن وحده حيث يقول : " والناس لا يؤمنون ابتداءً إلا أن يتحاكموا إلى منهج الله ، ممثلًا في حياة الرسول ﷺ في أحكام الرسول ، وباقيًا بعده في مصدريه القرآن والسُّنَّة بالبداهة "[١] .

ويقول : " كان النبع الذي استقى منه ذلك الجيل – الصحابة – هو نبع القرآن، القرآن وحده، فما كان حديث رسول الله ﷺ وهديه إلا أثرًا من آثار ذلك النبع ، فعندما سئلت عائشة – رضي الله عنها[٢] – عن خلق رسول الله ﷺ قالت : " كان خُلقه القرآن "[٣].[٤] .

ويقول : " إن الأصل الذي يجب أن ترجع إليه الحياة البشرية بجملتها هو دين الله ومنهجه للحياة ..إن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله التي هي ركن الإسلام الأول ، لا تقوم ولا تؤدى إلا أن يكون هذا هو الأصل .. وأن العبودية لله وحده مع التلقي في كيفية هذه العبودية عن رسول الله ﷺ لا تتحقق إلا أن يعترف بهذا الأصل ، ثم يتبع إتباعًا كاملًا بلا تلعثم ولا تردد، ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[٥]، ودين الله ليس غامضًا ، ومنهجه للحياة ليس مائعًا ، فهو محدد بشطر الشهادة الثاني–محمد رسول الله – فهو محصور فيما بلغه رسول الله ﷺ من النصوص..وأن يرجع إلى كتاب الله

(١) في ظلال القرآن ، ٢/ ٦٨٧

(٢) هي : عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما ، ولدت بعد البعثة بأربع سنين ، تزوجها الرسول ﷺ وهي بنت ست ودخل بها وهي بنت تسع ، في السُّنَّة ٢ هـ وهي من أحب نسائه إليه وأفقههن ، روت كثيرًا من السُّنَّة ، توفيت سُنَّة ٥٨ هـ ودفنت في البقيع انظر :الإصابة لابن حجر٤/ ٣٥٩– ٣٦١ .

(٣) رواه مسلم برقم ٧٤٦ ، والإمام أحمد في مسندة برقم ٢٥٣٠٥ ، وصححه الأرناؤوط ، انظر : سند الإمام أحمد بتحقيق الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة– بيروت ، ط١ عام ١٤٢١هـ ، ٤١/ ١٨٣ .

(٤) معالم في الطريق ، ص ١٥ .

(٥) سورة الحشر ، الآية ٧

وسُنَّة رسوله لمعرفة ما يريده الله "[١] .

ويقول أيضا: " الشريعة الإسلامية من صنع الله ، ومصدرها القرآن والسُّنَّة ".

ويقول أيضا :" ومصدرها – أي الشريعة –هو القرآن وسُنَّة رسول الله وحدهما وما عدا هذين المصدرين فهو فقه إسلامي تختلف حجيته بقياس بعضه إلى بعض" [٢] .

وعند حديثه عن خصائص التصور الإسلامي يقول : " ونقصد بوصف التصور الإسلامي بأنه تصور رباني أنه مأخوذ من مصدر رباني وهو القرآن الكريم والسُّنَّة الشريفة " [٣] .

٢ـ وجوب الوقوف عندما جاء في الكتاب والسُّنَّة : وعدم تجاوز ذلك وخاصة في قضايا الغيب وما أُبهم من النصوص. فعند حديثه عن آيات موسى – عليه السلام – التسع يقول : " فأما كيف وقعت هذه الآيات فليس لنا وراء النص القرآني شيء ، ولم نجد في الأحاديث المرفوعة إلى رسول الله ﷺ عنها شيء ، ونحن على طريقتنا في هذه الظلال نقف عند حدود النص القرآني .... ولا سبيل لنا إلى شيء إلا من طريق الكتاب والسُّنَّة الصحيحة " [٤] .

ويقول : " ونكتفي في مثل هذا الشأن من عوالم الغيب بما يرد في النصوص المستيقنة من قرآن أو سُنَّة " [٥] .

٣ـ وجوب طاعة الرسول ﷺ وتحكيم قوله :

يقول:" إنما هو قول الله سبحانه ، وقول نبيه ﷺ نحكمه في هذا الشأن –التلقي– ونرجع فيه إلى الله وإلى الرسول ،كما يرجع الذين آمنوا إلى الله والرسول فيما يختلفون فيه " [٦] .

ثانيا : موقف سيد قطب السلبي من السُّنَّة :

---

(١) معالم في الطريق ، ص ١٠٤ – ١٠٥ بتصرف .
(٢) نحو مجتمع إسلامي – سيد قطب – دار الشروق – بيروت طبعة عام ١٤١٥هـ ص ٥٠، ٥١ .
(٣) مقومات التصور الإسلامي – سيد قطب ، ص ١٨ .
(٤) في ظلال القرآن ٣/ ١٣٥٨ .
(٥) المصدر السابق ، ٣/ ١٤٨٣ .
(٦) معالم في الطريق ، ص ١٤٤

يتمثل موقف- سيد قطب- السلبي من السُّنَّة بموقفه من قضية الأخذ بحديث الآحاد في العقيدة ، وقبل عرض موقف سيد من حديث الآحاد في العقيدة وسببه لا بد من التعريف بحديث الآحاد وبيان سبب الاختلاف في حجيته عند الفرق بإيجاز:

١ - المراد بحديث الآحاد :

يقسم علماء الحديث والأصول الأخبار الواردة عن النبيﷺ إلى قسمين :

أ ـ متواتر: وهو" ما رواه جمع غفير يستحيل في العادة تواطؤهم على الكذب من أول الإسناد إلى منتهاه ، وأن يكون مستند خبرهم الحس .

ب ـ آحاد : وهو ما فقد شرطًا من شروط التواتر السابقة "[١] .

٢- هل خبر الواحد يفيد العلم أم الظن :

شغلت هذه المسألة العلماء قديمًا وحديثًا ، وصنفت فيها المصنفات ، وعليها بنى بعضهم قبول خبر الآحاد عمومًا،وبنى عليها آخرون عدم الاحتجاج به في العقائد.

وباستقراء آراء العلماء في ذلك نجد أن لهم في ذلك ثلاثة مذاهب :

الأول : أن خبر الواحد يفيد العلم مطلقًا : سواء احتفت به قرائن أم لا [٢] .

الثاني: أنه يفيد الظن مطلقًا : سواءً احتفت به قرائن أم لا ، وهذا مذهب جمهور المتكلمين والأصوليين ، وبعض المحدثين والفقهاء [٣] .

الثالث : أنه يفيد العلم إذا احتفت به قرينة أو أكثر : والقرينة قد تتعلق بالخبر، وقد تتعلق بالمخبر، وقد تتعلق بهما معًا . ويدخل في ذلك :

---

(١) شرح نخبة الفكر لابن حجر العسقلاني مع حاشية ابن قطلوبغا ، دار الوطن - الرياض - ط١ ، عام ١٤٢٠هـ ، ص ٢٦ ، ٣٧ . وشرح ألفية السيوطي ، لأحمد شاكر ، دار المعرفة -بيروت - ب . ت، ص ٤٦- ٤٧.

(٢) وهذا قول بن حزم والكرابيسي ،انظر: الإحكام للآمدي ٢/ ٣٢ ، وروضة الناظر لابن قدامه المقدسي ، دار الكتاب العربي - بيروت ، ط١ ، عام ١٤٠١هـ ، ص ٩١ . والإحكام في أصول الأحكام ، لابن حزم ، دار الكتب العلمية - بيروت - ط١ ، عام ١٤٠٥هـ ، ١/ ١١٥ ، ومختصر الصواعق للموصلي ، ٢/ ٣٦٢ . وإرشاد الفحول للشوكاني ، ص ٩٢

(٣) هذا القول مروي عن ابن عقيل، وابن الجوزي ، وأبي بكر الباقلاني، وغيرهم ، انظر : الإحكام للآمدي ، ٢/ ٢٣ وشرح الكوكب المنير ، لابن النجار ، مكتبة العبيكان ، الرياض ، ط١ ، ١٤١٨هـ ، ٢/ ٣٥١ . وفتح المغيث للسخاوي ، دار الكتب العلمية - بيروت - طبعة عام ١٤٢١هـ ، ١/ ٣١ .

١- الاستفاضة : كالخبر الذي يرويه في أصله واحد ثم يستفيض ويشتهر.

٢- ما تلقته الأمة بالقبول .

٣- ما اتفق على تخريجه البخاري ومسلم أو رواه أحدهما .

٤- ما كان مسلسلًا بالأئمة الحفاظ ونحوها [١] .

فهذا الخبر ونحوه يفيد العلم عند الجمهور، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله - :" وخبر الواحد المتلقى بالقبول يوجب العلم عند جمهور العلماء " [٢]. ويقول أيضًا : " وأما القسم الثاني من الأخبار فهو ما لا يرويه إلا الواحد العدل ونحوه ، ولم يتواتر لفظه ولا معناه ، ولكنه تلقته الأمة بالقبول عملًا به أو تصديقًا له .. فهذا يفيد العلم اليقين ، عند جماهير أمة محمدﷺ من الأولين والآخرين ، أما السلف فلم يكن بينهم في ذلك نزاع ، وأما الخلف فهذا مذهب الفقهاء الكبار من أصحاب الأئمة الأربعة .. " [٣] .

الرابع : يفيد العلم في بعض الأخبار لا في الكل : واليه ذهب بعض أهل الحديث ، وهي أخبار الغيب التي لا يجب فيها أكثر من الاعتقاد مثل الصراط والميزان ونحوها من أخبار يوم القيامة .

٣- حكم العمل بخبر الآحاد :

جمهور أهل العلم على العمل بخبر الآحاد ، وهو مذهب الصحابة وكافة التابعين وجماهير السلف والخلف .

قال ابن عبد البر[٤] - رحمه الله - : " وأجمع أهل العلم من أهل الفقه والأثر

(١) شرح نخبة الفكر ، ص ٣٩ - ٤٠ ، وإرشاد الفحول للشوكاني ، ص ٩٢ ، وما بعدها .

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، جمع عبد الرحمن النجدي ، طبعة عامة ١٤١٨هـ ، ١٨/ ٤١ . ورفع الملام عن الأئمة الأعلام ، لابن تيمية ، دار البصيرة - الإسكندرية - ط١ ، عام ١٤٢٩هـ ، ص ٥٠

(٣) حكاه عنه ابن القيم في مختصر الصواعق ٢/ ٣٧٢، ٣٧٣ ، ونحوه في مجموع الفتاوى ١٨/ ٤٨-٧٠ ، ونسب الشهاب هذا المذهب إلى فقهاء المذاهب الأربعة . انظر : المسودة في أصول الفقه لآل تيمية ، تحقيق د/ أحمد الدوري ، دار الفضيلة ، الرياض ، طبعة ١٤٢٢هـ ، ١/ ٤٨١ .

(٤) هو : يوسف بن عبد الله بن محمد النمري - أبو عمر - ولد بقرطبة سُنَّة ٣٦٨هـ ، كان فقيهًا حافظًا محدثًا كثير الشيوخ ،ولي القضاء فترة ، له مؤلفات جاوزت الأربعين ،منها : التمهيد والاستيعاب والاستذكار وغيرها ، توفي سُنَّة ٤٦٣هـ في شاطبة بالأندلس، انظر : ترجمته في سير أعلام النبلاء ، ١٨/ ١٥٩ ، وتذكرة الحفاظ ، ٣/ ١١٣٠.

في جميع الأمصار فيما علمت على قبول خبر الواحد العدل ، وإيجاب العمل به إذا ثبت، ولم ينسخه غيره من أثر أو إجماع ، على هذا جميع الفقهاء في كل عصر من لدن الصحابة إلى يومنا هذا إلا الخوارج وطوائف من أهل البدع "[١] .

وقول الجمهوربالعمل بحديث الآحاد يشمل مسائل الدين جميعًا سواءً مسائل العقيدة أو غيرها ، وإنما خالف بعض أهل الكلام ومن تبعهم[٢] ، فقالوا : إن أخبار الآحاد لا يصح الأخذ بها في العقائد ، لأن مبنى العقائد على القطع ، وأخبار الآحاد ظنية ، فلا يؤخذ بها ، فعندهم لا يقبل خبر الآحاد في الاعتقادات إلا إذا جاء موافقًا للعقل ، فيستدل به تعضيدًا لا احتجاجًا ، وإلا ردَّ وحكم ببطلانه[٣] .

وبطلان القول بعدم الأخذ بحديث الآحاد في العقيدة من وجوه عديدة منها:

١- أن التفريق بين المتواتر والآحاد في إفادة العلم ، اصطلاح حادث لم يدل عليه كتاب ناطق ولا سُنَّة ماضية ، ولم يعرفه الصحابة ولا التابعون ، فالرسولﷺ صدقه المؤمنون فيما أخبر به دون حاجة منهم إلى تواتر المخبرين[٤] ، وكذلك كان الرسولﷺ يصدق أصحابه فيما يخبرونه به، وكذا الصحابة يصدق بعضهم بعضًا فيما يخبر به عن رسول اللهﷺ ، ولم يقل واحد منهم لمن حدثه : خبرك خبر واحد، لا يفيد العلم حتى يتواتر ، وتوقف من توقف منهم حتى عضده آخر لا يدل على رد خبر الواحد، وإنما كانوا يستثبتون أحيانًا، بدليل أنهم كانوا يتوقفون في تصديق الراوي في أمور فرعية لا علاقة لها بالعقيدة ، وهكذا التابعون أخذوا عن الصحابة جماعات ووحدانًا ، كيفما اتفق دون طلب حصول التواتر[٥] . ولو كان هناك دليل قطعي على أن العقيدة لا تثبت بخبر الآحاد كما يزعمون لصرح بذلك الصحابة والتابعون رضي الله عنهم .

---

(١) التمهيد ، لابن عبد البر ، تحقيق أسامة إبراهيم ، دار الفاروق ، القاهرة ، ط١ ، عام ١٤٢٠ هـ ١/ ٦ .

(٢) الإحكام للآمدي ، ٢/ ٦٤ ، وشرح نخبة الفكر ، لابن حجر ، ص ٣٧. وإرشاد الفحول للشوكاني ، ص ٩٣ .

(٣) شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار بن أحمد المعتزلي ، تحقيق د/ عبد الكريم عثمان ، مكتبة وهبة – القاهرة – ط١ عام ١٣٨٤هـ ، ص ٧٦٨ – ٧٧٠ ، والإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد ، لإمام الحرمين الجو يني – مطبعة السعادة – مصر عام ١٩٥٠م ، ص ٣٥٩ ، وأساس التقديس ، لفخر الدين الرازي ، مطبعة كردستان العلمية ، عام ١٣٢٨ ،ص ٢٠٤ .

(٤) الرسالة ، للإمام محمد بن إدريس الشافعي ، تحقيق أحمد شاكر – المكتبة العلمية – بيروت – ب .ت . ص ٤٠١ ، ٤٣٦ وما بعدها

(٥) مختصر الصواعق ، للموصلي ، ٢/ ٣٦١ – ٣٦٢ .

٢- أن التفريق بين العقائد والأحكام في الأخذ بخبر الواحد إنما بني على أساس أن العقيدة لا يقترن بها عمل ، والأحكام العملية لا تقترن بها عقيدة ، وكلا الأمرين باطل وهو من بدع أهل الكلام ، فما من حكم عملي في الإسلام إلا وهو مرتبط بأصل عقدي ، وقد أستدل بعض أهل العلم عَلى إفادة خبر الواحد العلم بأن العمل فرع عن العلم [١].

وعمليًا يصعب التفريق بين الأحكام العملية وأحكام العقيدة ، فالعقيدة يقترن معها عمل ، والعمل يقترن معه عقيدة ، ورسول الله ﷺ عندما أرسل آحادًا من الصحابة إلى المدينة واليمن وغيرها طلب منهم أن يبلغوا العقيدة والعمل بدون تفريق بينهما ، وكان خبر هذا الواحد قطعيًا وليس ظنيًا [٢].

٣- ما ذكره غير واحد من أهل العلم من قيام الإجماع على قبول خبر الواحد إذا صح في جميع مسائل الدين العلمية والعملية دون تفريق ، والقول بالتفريق فيه خرق صريح لإجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أهل العلم [٣].

٤- أنه يلزم منه رد أكثر الأحاديث الثابتة المروية عن رسول الله ﷺ بمجرد تحكيم العقل، كما أنه لا يسلم لهم ضابط في التفريق بين أصول الدين وفروعه [٤].

يقول ابن القيم [٥]- رحمه الله - : " إن هذه الأخبار لو لم تفد اليقين ، فإن الظن الغالب حاصل فيها ولا يمتنع إثبات الأسماء والصفات بها ، كما لا يمتنع إثبات

---

(١) انظر : شرح التلويح للتفتازاني ، دار الكتب العربية - مصر - ب . ت ٢/ ٣ ، ومنهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السُّنَّة، لعثمان بن علي حسن ، مكتبة الرشد ، الرياض ، ط٤ - ١٤١٨هـ ، ١/ ١٢٩ .

(٢) وجوب الأخذ بحديث الآحاد في العقيدة للشيخ / محمد ناصر الدين الألباني ، المكتبة الإسلامية ، عمان ، ط٢، عام ١٤٢٢هـ ، ص٢٥ وما بعدها ، ودراسات في السيرة لمحمد سرور زين العابدين ، دار الأرقم ، بريطانيا، ط٥، عام ١٤١٤هـ ، ص٢٩٧.

(٣) مختصر الصواعق للموصلي ، ٢/ ٣٦٢ ، والأحكام لابن حزم ، ١/ ١١٦ وما بعدها وإرشاد الفحول للشوكاني، ص ٩٤ .

(٤) مختصر الصواعق للموصلي ، ٢/ ٣٦٢ ، ٤١٨ ، والأحكام لابن حزم ، ١/ ١١٦ وما بعدها .و مذكرة في أصول الفقه للشيخ / محمد الأمين الشنقيطي ، دار القلم - بيروت - طبعة ١٣٩١هـ ، ص١٠٤ - ١٠٥.

(٥) هو : محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي ، شمس الدين أبو عبد الله ، اشتهر بابن قيم الجوزية ، فقيه حنبلي ،ولد عام ٦٩١هـ بدمشق ، وتتلمذ على يد ابن تيمية وغيره ، أوذي وحبس عدة مرات ، كان إمامًا حافظًا برع في علوم كثيرة ، توفي سُنَّة ٧٥١هـ ، انظر ترجمته في : البداية والنهاية لابن كثير ، مكتبة المعارف بيروت ، ط٥ ، عام ٨٣م ، ١٤/ ٣٢٤ . وطبقات الحفاظ للسيوطي ، دار الكتب العلمية - بيروت - ط١ - عام ١٤٠٣هـ ص ٥٥٠ .

الأحكام الطلبية بها ، فما الفرق بين الطلب وباب الخبر ، بحيث يحتج بها في أحدهما دون الآخر ، وهذا التفريق باطل بإجماع الأمة ، فإنها لم تزل تحتج بهذه الأحاديث في الخبريات العلميات كما تحتج بها في الطلبيات العمليات .. ولم تزل الصحابة والتابعون وتابعوهم وأهل الحديث والسُّنَّة يحتجون بهذه الأخبار في مسائل الصفات والقدر والأسماء والأحكام" [١].

وعمومًا فالأخذ بأحاديث الآحاد في العقائد - سواءً قلنا أنها تفيد العلم أو الظن - هو الراجح، وأن التفريق في الأخذ بها بين العقائد وغيرها ، أو بين ما يسمى بأصول الدين وفروعه تفريق حادث ، لا يشهد له كتاب ولا سُنَّة ، ولا أثر عن أحد من السلف وأئمة الهدى .

٤- حكم من رد خبر الآحاد :

تنازع العلماء في حكم من رد خبر الآحاد ، فمنهم من كفره ،ومنهم من فسقه ومنهم من لم يكفره ولم يفسقه [٢].

والصواب في هذه المسائل - والله أعلم - أن ذلك يختلف باختلاف الأخبار وباختلاف أحوال الأشخاص الرادين للخبر :

* فأخبار الآحاد الصحيحة ليست على درجة واحدة من الصحة ، كما أن الخبر المحتف بالقرائن يختلف عن ما لم تحتف به قرينة ، وكذا الخبر الذي تلقته الأمة بالقبول يختلف عن ما اختلفوا فيه .

* وكذلك يختلف الأمر باختلاف الأشخاص ، فقد يكون الشخص مجتهدًا ، فيظن أن هذا الخبر الصحيح قد عارضه ما هو أقوى منه ، أو أنه لم يصح عنده، أو نحو ذلك مما يعذر به ،كما ذكر ذلك شيخ الإسلام في كتابه (رفع الملام عن الأئمة الأعلام).

* وقد يكون الشخص معاندًا وصاحب هوى ، قصده رد الأحاديث ومخالفة

---

(١) مختصر الصواعق ، للموصلي ، ٢/ ٤١٢ ، ودراسات في السيرة النبوية لمحمد سرور ، ص ٢٩٧ وما بعدها .

(٢) انظر الخلاف في ذلك في : المسودة لآل تيمية ، ١/ ٤٧٥ ، وشرح الكوكب المنير لابن النجار ، ٢/ ٣٥٢- ٣٥٣ ، ومختصر الصواعق للموصلي ، ٢/ ٣٦٨ .

ما أجمع عليه السلف لشبهة عقلية تلقاها من أهل الكلام المذموم ، أو لقصد إبطال العمل بالسُّنَّة النبوية .

* وقد يكون الشخص زنديقًا قصده الطعن في الإسلام .

يقول ابن القيم – رحمه الله – : " إن من رد الخبر الصحيح اعتقاداً لغلط الناقل أو كذبه أو لاعتقاد الراد أن المعصوم لا يقول هذا ، أو لاعتقاد نسخه ونحوه ، فرده اجتهاداً وحرصًا على نصر الحق، فإنه لا يكفر بذلك ولا يفسق ، فقد رد غير واحد من الصحابة بعض أخبار الآحاد الصحيحة .. " (١) .

وعليه : ينبغي مراعاة ما سبق عند الحكم على الشخص في رده للحديث ،والنظر في الحامل له على ذلك .

٥- موقف سيد قطب من حديث الآحاد وسببه :

من خلال استقراء ما كتبه سيد قطب – رحمه الله – تبين لي :

أ – أن سيد قطب مع إجماع العلماء في الاعتداد بالأحاديث الصحيحة بقسميها في مسائل الدين العملية .

ب – أن سيد قطب مع إجماع العلماء في الاعتداد بالحديث المتواتر في باب العقائد .

ج – أن سيد قطب – رحمه الله – خالف ما عليه جمهور أهل السُّنَّة والجماعة في مسألة الأخذ بحديث الآحاد في العقيدة ، حيث صرح في موضعين من كتاب (الظلال) بأن حديث الآحاد لا يؤخذ به في العقيدة ، ونص كلامه في الموضعين كما يأتي :

الموضع الأول :

في سورة الأنفال عند حديثه عن كيفية تزيين الشيطان للكفار يوم بدر المذكور في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَٰٓءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ

(١) مختصر الصواعق، للموصلي ، ٢/ ٣٧٠ .

مِنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ ﴾[1] يقول سيد: " ولقد وردت في هذا الآية والحادث الذي تشير إليه عدة آثار ليس من بينهما حديث عن رسول الله ﷺ - إلا ما رواه مالك [2] في الموطأ بسنده - أن رسول الله ﷺ قال: " ما رئي إبليس يومًا هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أدحر ولا أغيظ من يوم عرفة، وذلك مما يرى من تنزل الرحمة والعفو عن الذنوب، إلا ما رأى يوم بدر: قالوا: يا رسول الله وما رأى يوم بدر؟ قال: " أما أنه رأى جبريل يزع الملائكة ".

وفي هذا الأثر عبد الملك بن عبد العزيز بن الماجشون، وهو ضعيف الحديث والخبر مرسل"[3].

ثم أوردوا عدة آثار عن ابن عباس وغيره في بيان تمثل إبليس للمشركين في صورة رجل من مدلج ثم قال: " ونحن - على منهجنا في هذه الظلال - لا نتعرض لهذه الأمور الغيبية بتفصيل لم يرد به نص قرآني أو حديث نبوي صحيح متواتر، فهي من أمور الاعتقاد التي لا يلتزم فيها إلا بنص هذه درجته، ولكننا في الوقت ذاته لا نقف موقف الإنكار والرفض، فالنص القرآني يثبت أن الشيطان زين للمشركين أعمالهم.. ولكننا لا نعلم الكيفية .. الكيفية فقط هي التي لا نجزم بها، ذلك أن أمر الشيطان كله غيب ولا سبيل لنا إلى الجزم بشيء في أمره إلا في حدود النص المسلم، والنص هنا لا يذكر الكيفية إنما يثبت الحادث.."[4].

ثم حمل منكرًا على مدرسة الشيخ محمد عبده في التفسير محاولتها تأويل كل أمر غيبي ينفي الحركة الحسية عن هذه العوالم [5].

ويفهم من خلال كلام سيد السابق: أنه جعل من منهجه في الظلال عدم التعرض لتفاصيل

---

(١) سورة الأنفال، الآية ٤٨

(٢) هو: الإمام مالك بن أنس بن مالك الأصبحي، الحميري، أبو عبد الله إمام دار الهجرة، أحد الأئمة الأربعة، قال عنه الشافعي: (مالك حجة الله على خلقه بعد التابعين) توفي سُنَّة ١٧٩ هـ بالمدينة، انظر ترجمته في: وفيات الأعيان لأبن خلكان - دار صادر - بيروت - ب. ت، ٤/ ١٣٥.

(٣) الحديث رواه مالك والبيهقي وغيرهما، وضعفه الألباني، انظر: مشكاة المصابيح للخطيب التبريزي، تحقيق الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٤٠٥هـ، ٢/ ٧٩٨ برقم ٢٦٠٠، وضعيف الترغيب والترهيب، للألباني، مكتبة المعارف، الرياض، ط١ عام ١٤٢١هـ، ١/ ٣٦٧.

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٥٣١ بتصرف يسير.

(٥) المصدر السابق، ٣/ ١٥٣١ - ١٥٣٢.

الأمور الغيبية إلا ما ثبت تفصيله بنص قرآني أو حديث صحيح متواتر ، لكنه في الوقت ذاته لا ينكر أو يرفض أو يأول النصوص الواردة في ذلك كما فعل المتكلمون .

الموضع الثاني : في تفسير سورة الفلق عند حديثه عن السحر وطبيعته :[1]

تعرض سيد لمسألة سحر- لبيد بن الأعصم اليهودي- للنبيﷺ فقال : " وقد وردت روايات - بعضها صحيح لكنه غير متواتر - أن لبيد بن الأعصم اليهودي سحر النبيﷺ - في المدينة، قيل أيامًا ، وقيل شهرًا .. حتى كان يخيل إليه أنه يأتي النساء وهو لا يأتيهن في رواية ، وحتى كان يخيل إليه أنه فعل الشيء ولم يفعله في رواية ، وأن السورتين نزلتا رقية لرسول اللهﷺ فلما استحضر السحر المقصود - كما أخبر في رؤياه - وقرأ السورتين انحلت العقد ، وذهب عنه السوء" [2] .

وقد حاول سيد - رحمه الله - أن يبين سبب استبعاده لكون الروايات في حادث سحر النبيﷺ هي سبب نزول السورتين بقوله :" ولكن هذه الروايات :

* تخالف أصل العصمة النبوية في الفعل والتبليغ.

* ولا تستقيم مع الاعتقاد بأن كل فعل من أفعالهﷺ وكل قول من أقواله سُنَّة وتشريع.

* كما تصطدم بنفي القرآن عن رسول اللهﷺ أنه مسحور ، وتكذيب المشركين فيما كانوا يدعونه من هذا الإفك ، ومن ثم تستبعد هذه الروايات .

* وأحاديث الآحاد لا يؤخذ بها في أمر العقيدة ، والمرجع هو القرآن ، والتواتر شرط للأخذ بالأحاديث في أصول الاعتقاد ، وهذه الروايات ليست من المتواتر.

* فضلًا على أن نزولها في مكة هو الراجح مما يوهن أساس الروايات الأخرى [3].

ومن خلال كلام سيد السابق يتبين لنا ما يأتي :

أولا : إنكار سيد قطب لحادثة سحر النبيﷺ واستبعاده للأحاديث المثبتة لها في

---

(١) لسيد رحمه الله - رأي في حقيقة السحر - سيأتي بيانه - إن شاء الله - عند الحديث عن نواقض التوحيد .

(٢)في ظلال القرآن ، ٦/ ٤٠٠٨ وقصة سحر النبيﷺ رواها الإمام البخاري انظر : صحيح البخاري ،دار ابن كثير - بيروت - ط٥ ، عام ١٤١٤هـ ، كتاب الجزية ، باب هل يعفى عن الذمي إذا سحر ٣/ ١١٥٩ ، برقم ٣٠٠٤ ، وأيضًا برقم ٣٠٩٥ ، ٥٤٣٠ ، ٥٤٣٢ ، ٥٧٢٦ ، ٦٠٢٨ .

(٣) في ظلال القرآن ، ٦/ ٤٠٠٨ .

الصحيحين لكونها كما يقول تخالف أصل العصمة وتخالف نفي القرآن للسحر عن الرسولﷺ . وهنا وقع سيد قطب – رحمه الله – في ثلاثة أخطاء :

الخطأ الأول : ظنه أن سحر النبيﷺ الثابت في الحديث الصحيح يتعارض مع أصل العصمة، وهذا القول غير صحيح: " لأن الرسولﷺ معصوم بالإجماع من كل ما يؤثر خللاً في التبليغ والتشريع ، وأما بالنسبة إلى الأعراض البشرية كأنواع الأمراض والآلام ، ونحو ذلك فالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم يعتريهم من ذلك ما يعتري البشر [١].

قال القاضي عياض[٢]– رحمه الله –:" فظهر بهذا أن السحر إنما تسلط على جسده وظواهر جوارحه ،لا على معتقده ،.. فالسحر مرض من الأمراض ، وعارض من العلل يجوز عليه كأنواع الأمراض مما لا ينكر ولا يقدح في نبوته" [٣].

إن وقوع المرض له بسبب السحر لا يجر خللًا لمنصب النبوة ، لأن المرض الذي لا نقص فيه في الدنيا يقع للأنبياء ، ويزيد في درجاتهم في الآخرة – عليهم الصلاة والسلام– وحينئذ فإذا خيل له بسبب مرض السحر أنه يفعل شيئًا من أمور الدنيا وهو لم يفعله ثم زال ذلك عنه بالكلية بسبب إطلاع الله له على مكان السحر وإخراجه إياه من محله ودفنه ، فلا نقص يلحق بالرسالة من هذا كله ، لأنه مرض كسائر الأمراض لا تسلط له على عقله ، بل هو خاص بظاهر جسده ، حيث صار يخيل إليه تارة فعل الشيء من ملامسة بعض أزواجه وهو لم يفعله ، وهذا في زمن المرض لا يضر " [٤].

الخطأ الثاني : ظنه أن حديث السحر يتعارض مع الآيات القرآنية التي تكذب مزاعم المشركين الذين زعموا أن الرسولﷺ رجل مسحور .

---

(١) ينظر : أضواء البيان ، للشنقيطي ، دار إحياء التراث الإسلامي ، بيروت ، ط١ ، عام ١٤١٧ ، ٣/ ٤٤ . وعالم السحر والشعوذة ، د/ عمر الأشقر ، دار النفائس – الأردن ، ط٢ ، عام ١٤١٨هـ ، ص ١٨٣ .

(٢) هو : عياض بن موسى بن عمران ، اليحصبي ، أبو الفضل السبتي ، ولد في سبته سنة ٤٧٦هـ ، عالم المغرب وإمام الحديث في وقته ، كان من أعلم الناس بكلام العرب وأنسابهم ، تولى قضاء سبته وغرناطة ، توفي مسمومًا، عام ٥٤٤هـ ، انظر ترجمته في : وفيات الأعيان ، ٣/ ٤٨٣ .

(٣) الشفا في تعريف حقوق المصطفى ، للقاضي عياض اليحصبي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ب .ت ، ٢/ ١٨٢.

(٤) دراسات في السيرة لمحمد سرور ،ص ٣١٨ .

" فهذا الحديث الصحيح الذي هو في أعلى درجات الصحة السبع لاتفاق الشيخين عليه وغيرهما ، غير مصادم لنص القرآن الذي هو قوله تعالى إخبارًا عن قول الكفرة ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾[١] ، لأن القرآن دَّل صراحة على أن السحر قد يؤثر في الأنبياء فيما لا يتعلق بالتبليغ والشرع ، كما ذكر في قصة موسى - عليه السلام - وقد علمنا فيما سبق أن تأثير السحر لا يمكن أن يصل إلى حد الإخلال في تلقي الوحي وتبليغه لأن النصوص دالة على عصمة الأنبياء في ذلك [٢].

الخطأ الثالث : قوله بأن أحاديث الآحاد لا يؤخذ بها في العقيدة ، وأن التواتر شرط للأخذ بالأحاديث في أصول الاعتقاد ، وقد بينا خطأ هذا القول عند الحديث عن حكم العمل بخبر الآحاد .

والذي يظهر لي أن موقف سيد هذا من حديث الآحاد كان سببه تأثره بالمدرسة الإصلاحية وأفكارها رغم انتقاده لها - حيث وجدت أن كلامه ليس إلا تلخيصًا لكلام الشيخ محمد عبده [٣] ، وكذا قوله بأن إثبات السحر يمس العصمة النبوية .

وقد حاول بعض المؤلفين أن يعتذر لسيد بأن كلامه هذا في تفسير سورة الفلق وهو لم يصل إليه عند مراجعته وتنقيحه للظلال ولو وصل إليه لغير رأيه [٤] .

وهذا الكلام يدحضه وجود كلام سيد الأول في تفسير سورة الأنفال وهو في الجزء المنقح مما يدل على أن موقف سيد من خبر الآحاد ثابت لم يتغير [٥].

ولعل مما يخفف من موقف سيد من خبر الآحاد ،هو أنه لا يرد أخبار الآحاد على الإطلاق ، ولا يقف منها موقف المنكر، كما قال صريحا : " ولكننا في الوقت ذاته لا نقف منه موقف الإنكار والرفض " [٦].

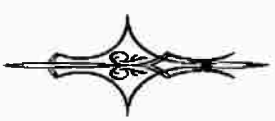

(١) سورة الإسراء ، آية ٤٧ .
(٢) عالم السحر والشعوذة، للأشقر ، ص ١٨٨ .
(٣) ينظر كلامه في : تفسير جزء عم . لمحمد عبده ، مطبعة مجلة المنار القاهرة - ط٢ ، عام ١٣٢٩هـ ، ص ١٨٣ - ١٨٤ .
(٤) سيد قطب لمحمد توفيق بركات ، ص ٢٥٧ .
(٥) في ظلال القرآن في الميزان ، د/ صلاح الخالدي ، ص ٩٢ .
(٦) في ظلال القرآن، ٣/ ١٥٣١ .

المطلب الثالث

الفطرة

الفطرة في اللغة: من فطر الشيء يفطره، فطرًا، وتأتي بمعنى الشق والابتداء والخلق [(١)].

وفي الاصطلاح: هي ما جبل الله عباده عليه من معرفته وتوحيده، وتفسر أيضًا: بالإسلام والدين الحق [(٢)].

وجمهور أهل السُّنَّة والجماعة متفقون على أن الناس مفطورون على معرفة الله تعالى ومحبته ورجائه وعبادته، وأن هذه الفطرة لو خُليت وعدم المعارض لبقيت على حالتها من السلامة والاستقامة ولكنها يعرض لها ما يغيرها ويحولها إلى الكفر أو الشرك.

كما يرون أن مسائل الدين موافقة لفطر الناس - قبل التغيير والتحويل- فلا تجد مسألة منها إلا وفي الفطرة ما يشهد لها بالصحة والسلامة، سواءً المسائل المتعلقة بالربوبية أو الإلوهية أو الأسماء والصفات أو الأحكام، فالإسلام بعقائده وشرائعه هو دين الفطرة فكل مسائله يوجد في الفطرة ما يؤيدها ويشهد لصحتها ،إما صراحة، وذلك في الأصول الكبار، أو إحالة، بمعنى أن الفطرة لا تنفر من ذلك وهذا في تفاصيل تلك الأصول [(٣)].

قال تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [(٤)].

(١) لسان العرب، لابن منظور، ١٠/ ٢٨٦، ٢٨٧، والصحاح للأزهري، ٢/ ٧٨١
(٢) الفطرة، حقيقتها ومذاهب الناس فيها، علي بن عبد الله القرني، دار المسلم، الرياض، ط١ عام ١٤١٤هـ، ص١٥٠ وما بعدها
(٣) ينظر في ذلك: مجموع فتاوى ابن تيمية، ١٦/ ٣٣٠-٣٣٢، وشفاء العليل، لابن القيم، دار الكتاب العربي - بيروت - ط١، عام ١٤٢٤هـ، ص٤٤٥ وما بعدها .وإيثار الحق، لابن الوزير، دارا لكتب العلمية، بيروت - ط٢، عام ١٤٠٧هـ، ص ٢٤ وما بعدها، ومنهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السُّنَّة، لعثمان علي حسن، ١/ ٢١٠ -٢١٨ بتصرف.
(٤) سورة الروم، الآية ٣٠.

وقد اعتمد سيد قطب - رحمه الله - على الفطرة في تقريره لمسائل الاعتقاد ، واعتبرها دليلًا من أدلة التوحيد ومصدرًا من مصادر الاعتقاد لكنه مصدر غير مستقل ، فالفطرة سبب هداية مركوز بالنفوس يكمّل بالرسل والكتب [١].

وقد قرر سيد - رحمه الله - أن : " قضية التوحيد تعرض في القرآن من زاوية الفطرة التي فطر الله عليها البشر ، وأخذ عليهم الميثاق في ذات أنفسهم وذات تكوينهم ، وهم بعد في عالم الذر ، إن الاعتراف بربوبية الله وحده فطرة في الكيان البشري ، فطرة أودعها الخالق في هذه الكينونة ، وشهدت بها على نفسها بحكم وجودها الذاتي ، وحكم ما تستشعره في أعماقها من هذه الحقيقة ، أما الرسالات فتذكير وتحذير لمن ينحرفون عن فطرتهم الأولى ، فيحتاجون إلى التذكير والتحذير .. إن التوحيد ميثاق معقود بين فطرة البشر وخالق البشر منذ كينونتهم الأولى فلا حجة لهم في نقض الميثاق - حتى لو لم يبعث إليهم بالرسل يذكرونهم ويحذرونهم - ولكن رحمته وحدها اقتضت ألا يكلهم إلى فطرتهم هذه فقد تنحرف ، وألا يكلهم إلى عقولهم التي أعطاها لهم فقد تضل ،وأن يبعث إليهم رسلًا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل " [٢].

" فالفطرة عهد مركوز في طبيعة كل حي ، يقوم على معرفة العبد خالقه ، والاتجاه إليه بالعبادة وما تزال في الفطرة هذه الجوعة للاعتقاد بالله " [٣].

" وتفرد الله تعالى بالإلوهية والملك والدين ،والنعمة والتوجه، أمور تشهد بها فطرة البشر وخاصة حين يصهرها الضر ، وينفض عنها أوشاب الشرك " [٤].

" فالفطرة بذاتها تحس بوجود الخالق الواحد ما لم تفسد أو تنحرف" [٥] .

" وهي مجذوبة إلى الذي فطرها تتجه إليه أول ما تتجه ، فلا تنحرف عنه إلا بدافع آخر خارج على فطرتها ، فالتوجه إلى الخالق هو الأولى وهو الأول " [٦].

---

(١) انظر : في ظلال القرآن ، ٣/ ١٣٩٤ وما بعدها .
(٢) في ظلال القرآن : ٣/ ١٣٩١ .
(٣) المصدر السابق : ١/ ٥١.
(٤) المصدر السابق : ٤/ ٢١٧٦ ، ٥/ ٣٠٤١ .
(٥) المصدر السابق ٥/ ٢٦١٨ .
(٦) المصدر السابق : ٥/ ٢٩٦٣ .

وباستقراء كلام سيد قطب – رحمه الله - نجد :

١- أنه يرى أن الفطرة أحد مصادر العقيدة وأنها من دلائل التوحيد والإيمان- كما سيأتي-.

٢- أن الإيمان والتوحيد أمر فطري في العباد [١].

٣- أن منهج القرآن يقوم على مخاطبة الفطرة وإحالة المخاطبين إلى فطرهم وغرائزهم.

٤- أن الفطرة قد تنحرف وتفسد نتيجة لعدة عوامل ، وبالتالي فإن من رحمة الله تعالى إرسال الرسل وإنزال الكتب لاستنقاذ الفطرة من الانحراف ، وأنه سبحانه لا يحاسبهم على عهد الفطرة حتى يرسل إليهم الرسل ويفصل لهم الآيات [٢].

وبهذا نجده موافقًا لما عليه أهل السُّنَّة والجماعة في قضية الفطرة ، ومخالفًا للمتكلمين الذين يقولون بأن المعرفة نظرية جدلية ، وليست فطرية ، فالله عندهم - أي المتكلمين - لا يعرف إلا بالنظر الجدلي وأن النظر والقصد إلى النظر هو أول واجب على المكلف [٣].

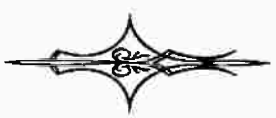

(١) المصدر السابق ٢/ ١١٣٨ ، ١١٣٩ .

(٢) في ظلال القرآن ، ٣/ ١٣٩٥ .

(٣) ينظر كلامهم في : التمهيد والأوائل . للباقلاني ، مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت - ط٣ ، عام ١٤١٤هـ ، ص ٤٣ . وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ، تحقيق / التركي والأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت، ط٢ ، ١٤١٣هـ ، ص ٢٣ .

المطلب الرابع

العقل

العقل في اللغة : مصدر من عقل ، يعقل، عقلًا ، فهو معقول وعاقل ، وأصله: المنع ، ويطلق العقل على معاني كثيرة منها : الحجر ، والنهي ، والدية ، والملجأ ، والحصن ، والقلب[١]. وكلها معانٍ تدور حول المنع .

وأما العقل في الاصطلاح : فقد اُختلف في تعريفه وتحديد ماهيته ، وباستقراء كلام العلماء والفرق نجد أن العقل يستعمل في أربعة معانٍ :

الأول : الغريزة المدركة التي بها يعلم الإنسان ويعقل ، وهي فيه كقوة البصر في العين ، وهي شرط في المعقولات ، ومناط التكليف ، وبها يمتاز الإنسان عن سائر الحيوان[٢].

الثاني : العلوم الضرورية التي تقع ابتداءً وتشمل جميع العقلاء، كالعلم بالممكنات والواجبات والممتنعات – وهذا تعريف الفلاسفة والمتكلمين للعقل[٣].

الثالث :العلوم النظرية التي تحصل بالنظر والاستدلال، ويتفاوت الناس فيها.

الرابع : الأعمال التي تكون بموجب العلم ، فلا عقل لمن لم يعمل بموجب ما هداه له عقله [٤]. فالتعريف الأكمل للعقل يكون بذكر معانيه السابقة مجتمعه ، يقول صاحب القاموس : " والحق أنه نور روحاني به تدرك النفس العلوم الضرورية والنظرية "[٥] وفي كل معاني العقل المتقدمة لا يوصف بأنه جوهر قائم بنفسه خلافًا

---

(١) لسان العرب لابن منظور ، ٩/ ٣٢٦ وما بعدها، والقاموس المحيط ، للفيروز أبادي ، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط٥ ، عام١٤١٦هـ ، ص ١٣٣٦ ،

(٢) ينظر : إحياء علوم الدين ، لأبي حامد الغزالي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط . ب . ت ، ١/ ١٤٥ ، ومجموع فتاوى ابن تيمية ، ٩/ ٢٨٧ ، ٣٥٠ ، ١٦/ ٣٣٦ . ودرء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ، طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود – الرياض ،عام ١٣٩٩هـ ، ١/ ٨٩ .

(٣) الحدود ، لأبي الوليد سليمان بن خلف الباجي ، مؤسسة الزغبي ، حمص ، ط١ ، عام ١٣٩٢هـ ، ص ٣١ .

(٤) ينظر : مجموع فتاوى ابن تيمية ، ٩/ ٢٨٦ ، ومنهج الاستدلال لعثمان علي حسن ، ١/ ١٥٩ .

(٥) والقاموس المحيط ، للفيروز أبادي ، ص ١٣٣٦ .

للفلاسفة ومن شايعهم من المتكلمين [١]. بل العقل صفه أو عرض - عند من يتكلم بالجوهر والعرض - يقوم بالعاقل ، وكونه صفة يمنع كونه أول المخلوقات، لأن الصفة لا تقوم بنفسها [٢].

ومما سبق يتضح لنا : أن العقل شرط في معرفة العلوم ، وكمال وصلاح الأعمال ، به يكمل العلم والعمل ، لكنه ليس مستقلا بذلك ، إنه غريزة في النفس ، وقوة فيها بمنزلة قوة البصر التي في العين ، فإذا اتصل به نور الإيمان والقرآن كان كنور العين إذا اتصل به نور الشمس والنار وإذا انفرد بنفسه لم يبصر الأمور التي يعجز وحده عن دركها [٣].

ويتفاوت الناس في العقل ، بل قد يحصل التفاوت في الشخص الواحد "فالإنسان وإن زعم في الأمر أنه أدركه وقتله علما لا يأتي عليه زمان إلا وقد عقل ما لم يكن يعقل وأدرك ما لم يكن أدرك من قبل " [٤].

وخالف في ذلك الفلاسفة والمتكلمون فقالوا : إن الناس متساوون في العقول، وذلك بناءً على أن العقل عندهم حجة عامة يرجع إليها الناس عند اختلافهم ، ولو تفاوتت العقول لما حصل ذلك ، وهذا مبني على تعريفهم للعقل بأنه :" بعض العلوم الضرورية التي لا يختلف الناس عليها" والصواب ما تقدم [٥].

مواقف الناس من العقل :

جعل الله العقل دليلا إلى الإيمان به ، والتعرف عليه ، ومميزًا بين الحق والباطل. إلا أن الناس صاروا في شأن العقل نحلا شتى واختلفت مواقفهم منه ويمكن إجمال ذلك فيما يأتي :

الطائفة الأولى : غَلت في العقل ، وأعطته فوق قدره فجعلته حاكمًا على

---

(١) ينظر : الحدود لابن سيناء ، تحقيق أميليه حواشن - منشورات المعهد الفرنسي -القاهرة ، ب . ت ، والتعريفات للجرجاني ص ٨١ .

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ، ١٨/ ٣٣٨ .

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ، ١٣/ ٣٣٨-٣٣٩ .

(٤) الاعتصام ، للإمام أبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي ، دار الفكر - بيروت . ب. ت . ٢/ ٣٢٢ .

(٥)ينظر : شرح الكوكب المنير ، لابن النجار ، ص ٨١ . وأساس التقديس للفخر الرازي ، ص ٢١٠ ، ٢١١ ، ودرء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ، ٧/ ٣٥٣ وما بعدها .

الوحي، ورقيبًا عليه بل جعلت العقل محور المعرفة ، وسبيل الوصول إلى الحقائق وميزان التحسين والتقبيح ، فالدليل العقلي عند هؤلاء قطعي والسمعي ظني ، لذا قالوا بتقديم العقلي مطلقًا ويمثل هذه الطائفة المعتزلة والفلاسفة [١].

الطائفة الثانية : على النقيض من الأولى ، عطلوا العقل ، وخضعوا للذوق والشهوات ، بل ذموا العقل وعابوه ، وادعوا أن كثيرًا من القوانين العقلية يمكن أن يأتي عليها البطلان ،لذا تجدهم يقررون أمورًا يعرف كذبها بصريح العقل ، ويمدحون أحوالًا لا تكون إلا مع زوال العقل والتمييز ، كالجنون والوله ، ويمثل هذه الطائفة غلاة المتصوفة ومن شايعهم [٢].

الطائفة الثالثة : وهم أهل السُّنَّة والجماعة ، الذين أعطوا العقل قدره ، فلم يغلوا فيه ولم يرغبوا عنه ، بل أعملوه في فهم آيات الله الكونية والشرعية ، وجعلوه دليلًا من أدلة المعرفة عامة والدينية خاصة ، تابعًا للوحي غير مستقل ، ويرون أنه لا تعارض بين الشرع والعقل ، فالوحي جاء بالأدلة العقلية صافية من كل كدر ، وعرضَ مسائل الاعتقاد بأدلتها العقلية التي يجب على العقل النظر فيها وفهمها على وجهها .

موقف سيد قطب – رحمه الله – من العقل :

من خلال استقراء كلامه- رحمه الله- يمكن بيان موقفه من العقل فيما يأتي:

١- يرى أن العقل هو أداة التمييز والمعرفة والهداية في الإنسان، وأن الناس يختلفون فيه، وأن العقل البشري يتأثر بالمؤثرات ، لذا لا بد من ميزان ثابت ترجع إليه العقول جميعًا هو الشرع :يقول – رحمه الله – : " إن للعقل البشري وزنه وقيمته بوصفه أداة من أدوات المعرفة والهداية في الإنسان.. لكن هذا العقل البشري هو عقل الأفراد والجماعات في بيئة من البيئات ، متأثرًا بشتى المؤثرات.. ليس هناك ما يسمى " العقل البشري " كمدلول مطلق إنما هو عقلي وعقلك ، وعقل فلان وعلان ، وعقول هذه المجموعة من البشر ، في مكان ما، وفي زمان ما.. وهذه كلها واقعة تحت مؤثرات شتى ، تميل بها من هنا وتميل بها من هناك ولا بد من

(١) ينظر : الإرشاد للجويني ، ص ٣٥٩ ، وشرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار، ص ٨٨ .
(٢) ينظر : مجموع فتاوى ابن تيمية ،٣/ ٣٣٨ ، ومنهج الاستدلال لعثمان علي حسن ، ١/ ١٦٧.

ميزان ثابت ، ترجع إليه هذه العقول الكثيرة ، فتعرف عنده مدى الخطأ والصواب في أحكامها وتصوراتها ، ومدى الشطط والغلو ، أو التقصير والقصور في هذه الأحكام والتصورات ، وقيمة العقل البشري هنا هو أنه الأداة المهيأة للإنسان ليعرف بها وزن أحكامه في هذا الميزان - الميزان الثابت الذي لا يميل مع الهوى ، ولا يتأثر بشتى المؤثرات " (١).

ويقول أيضاً : " والإنسان مهيأ بطبعه للخير والشر ، وعقله هو أداته للتمييز ، ولكن هذا العقل في حاجة إلى ميزان مضبوط يعود إليه دائمًا كلما غم عليه الأمر، وأحاطت به الشبهات ، وجذبته التيارات والشهوات ، وأثرت فيه المؤثرات العارضة التي تصيب البدن والأعصاب والمزاج ، فتتغير وتتبدل تقديرات العقل أحيانًا من النقيض إلى النقيض ، هو في حاجة إلى ميزان مضبوط لا يتأثر بهذه المؤثرات ليعود إليه ، وينزل على إرشاده ويرجع إلى الصواب على هداه ، وهذا الميزان الثابت العادل هو : هدى الله وشريعة الله " (٢).

ويقول : " العقل البشري لا يصلح وحده أن يكون ضابطًا موزونًا ما لم ينضبط هو على ميزان العقيدة الصحيحة ، فالعقل يتأثر بالهوى كما نشهد في كل حين ، ويفقد قدرته على المقاومة في وجه الضغوط المختلفة ما لم يضم إلى جانبه ذلك الضابط الموزون " (٣).

٢- يقرر سيد قطب - رحمه الله - أن الإسلام دين العقل، حيث يقول: " إن الإسلام دين العقل نعم ، بمعنى أنه يخاطب العقل بقضاياه ومقرراته ، ولا يقهره بخارقة مادية لا مجال له فيها إلا الإذعان ، ويخاطب العقل بمعنى أنه يصحح له منهج النظر ، ويدعوه إلى تدبر دلائل الهدى وموحيات الإيمان في الأنفس والآفاق، ليرفع عن الفطرة ركام الإلف والعادة والبلادة ، وركام الشهوات المضلة للعقل والفطرة ، ويخاطب العقل بمعنى أنه يكل إليه فهم مدلولات النصوص التي تحمل مقرراته ، ولا يفرض عليه أن يؤمن بما لا يفهم مدلوله ولا يدركه ، فإذا وصل إلى مرحلة إدراك المدلولات وفهم المقررات لم يعد أمامه إلا التسليم بها فهو مؤمن ، أو

(١) في ظلال القرآن ، ٢/ ٦٩٠ .
(٢) المصدر السابق ، ٣/ ١٧٦٠ .
(٣) في ظلال القرآن ، ٢/ ٩٩٠ .

عدم التسليم بها فهو كافر " [١].

ويقول أيضًا : " إن هذه الرسالة تخاطب العقل.. بمعنى أنها توقظه ، وتوجهه ، وتقيم له منهج النظر الصحيح " [٢].

٣- يرى أن العقل الصريح لا يناقض الشرع الصحيح ، حيث يقول : " وهذا لا يعني أن التصور الإسلامي مناقض أو مصادم للعقل البشري ، فإن مقرراته -أي التصور الإسلامي - نوعان :

نوع الإدراك البشري قادر على تصوره عند تلقيه من المصدر الرباني ، ونوع هو غير قادر على إدراكه ، ولكن منطقه ذاته يسلم بأن طبيعته أكبر من حدود إدراكه ، وأن " وجود " ما هو أكبر من حدود إدراكه داخل في قدرة الله ، وأن إخبار الله عن وجوده هو بذاته برهان هذا الوجود ، وبرهان صحة الإخبار.. ومن ثم لا يقع التناقض ، أو التصادم أبدًا متى استقام العقل البشري والتزم حدوده " [٣].

ويقول أيضًا : " والقرآن هو الذي نستقي منه مقرراتنا العقلية ، ومن ثم لا يصلح أن يقال : إن مدلول هذا النص يصطدم مع العقل .." [٤].

٤- أما قيمة العقل البشري، ووظيفته، ومجاله ودوره في قضية الإيمان والهدى ، وفي قضية منهج الحياة ونظامها عند سيد قطب - رحمه الله - فيمكننا تلخيصه في النقاط الآتية :

أ - دور العقل أن يتلقى عن الوحي ويفهم عنه ويزن الواقع بميزان الوحي، فالعقل لا يستقل بالمعارف الدينية، ولا يغني عن الوحي، يقول سيد -رحمه الله-: " ونقف من هذه اللفتة في قوله تعالى:﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾[٥] أمام قيمة العقل البشري ووظيفته ودوره في أخطر قضايا " الإنسان" قضية الإيمان بالله ،التي تقوم عليها

(١) في ظلال القرآن ، ، ٢/ ٨٠٧ .
(٢) المصدر السابق ، ٢/ ٨٠٦ .
(٣) مقومات التصور الإسلامي - سيد قطب - ص ٤٦ .
(٤) في ظلال القرآن ، ٦/ ٣٩٧٩.
(٥) سورة النساء آية ١٦٥ .

حياته في الأرض في جذورها بكل مقوماتها واتجاهاتها وواقعيتها وتصرفاته ، كما يقوم عليها مآله في الآخرة وهي أكبر وأبقى لو كان الله – سبحانه – وهو أعلم بالإنسان وطاقاته كلها ، يعلم أن العقل البشري الذي وهبه للإنسان ، هو حسب هذا الإنسان في بلوغ الهدى لنفسه والمصلحة لحياته في دنياه وآخرته لوكله إلى هذا العقل وحده ، يبحث عن دلائل الهدى وموحيات الإيمان في الأنفس والأفاق ، ويرسم لنفسه كذلك المنهج الذي تقوم عليه حياته ،.. ولما أرسل إليه الرسل على مدى التاريخ ، ولما جعل حجته على عباده هي رسالة الرسل إليهم وتبليغهم عن ربهم .. ولكن لما علم الله – سبحانه – أن العقل الذي آتاه للإنسان أداة قاصرة بذاتها عن الوصول إلى الهدي بغير توجيه من الرسالة وعون وضبط – وقاصرة كذلك عن رسم منهج للحياة الإنسانية يحقق المصلحة الصحيحة لهذه الحياة ، وينجي صاحبه من سوء المآل في الدنيا والآخرة .. شاءت حكمته وشاءت رحمته[١] أن يبعث للناس بالرسل، وألا يؤاخذ الناس إلا بعد الرسالة والتبليغ ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾[٢].. وهذه تكاد تكون إحدى البدهيات التي تبرز من هذا النص القرآني أو إحدى مقتضياته الحتمية"[٣].

ويقول أيضا: " إن دور هذا العقل أن يتلقى عن الرسالة ، ووظيفته أن يفهم ما يتلقاه عن الرسول ومهمة الرسول أن يبلغ ويبين ، ويستنقذ الفطرة الإنسانية مما يرين عليها من الركام ، وينبه العقل الإنساني إلى تدبر دلائل الهدى وموحيات الإيمان في الأنفس والآفاق ، وأن يرسم له منهج التلقي الصحيح ، ومنهج النظر الصحيح ، وأن يقيم له القاعدة التي ينهض عليها منهج الحياة العملية المؤدي إلى خير الدنيا والآخرة" [٤].

ويقول أيضا : " إن هذا العقل الذي وهبه الله للإنسان قادر على تلقي ذلك الوحي، وإدراك مدلولاته ،وهذه وظيفته .. ثم هذه هي فرصته في الفوز والهداية،

---

(١) الأولى أن يقال : شاء الله بحكمته ورحمته "فإن المشيئة من صفات الذات .(من إضافات الشيخ د/ عبد الوهاب الديلمي حفظه الله) .

(٢) سورة الإسراء آية ١٥.

(٣) في ظلال القرآن ، ٢/ ٨٠٦ بتصرف يسير

(٤) في ظلال القرآن ، ٢/ ٨٠٦ .

وفي الانضباط بهذا الضابط الصحيح الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

فأما حين يستقل هذا العقل البشري بنفسه بعيدًا عن الوحي ، فإنه يتعرض حينئذٍ للضلال والانحراف وسوء الرؤية ، ونقص الرؤية ، وسوء التقدير ، وسوء التدبير والذين يرون أن هذا العقل يغني عن الوحي – حتى عند فرد واحد من البشر مهما بلغ عقله من الكبر – إنما يقولون في هذه القضية غير ما يقول الله ... فالله قد جعل حجته على الناس هي الوحي والرسالة ، ولم يجعل هذه الحجة هي عقلهم البشري، ولا حتى فطرتهم التي فطرهم عليها من معرفة ربها الواحد والإيمان به . لأن الله سبحانه يعلم أن العقل وحده يضل وأن الفطرة وحدها تنحرف وأنه لا عاصم لعقل ولا لفطرة إلا أن يكون الوحي هو الرائد الهادي وهو النور والبصيرة "[1].

ب – العقل البشري ليس ندًا للوحي فضلًا عن أن يكون حاكمًا عليه: وبالتالي فلا يجوز أن يكون العقل حاكمًا على الوحي ومقرراته صحة وبطلانًا وليس له خيار في الأخذ بالنص أو تركه كما أنه لا يجوز للعقل معارضة الوحي بمقرراته .

يقول سيد في ذلك : " وليس دور العقل أن يكون حاكمًا على الدين ومقرراته من حيث الصحة والبطلان والقبول أو الرفض – بعد أن يتأكد من صحة صدورها عن الله ، وبعد أن يفهم المقصود بها: أي المدلولات اللغوية ، والاصطلاحية للنص – ولو كان له أن يقبلها أو يرفضها بعد إدراك مدلولها ، لأنه هو لا يوافق على هذا المدلول ! أو لا يريد أن يستجيب له – ما استحق العقاب من الله على الكفر بعد البيان ، فهو إذن ملزم بقبول مقررات الدين متى بلغت إليه عن طريق صحيح ، ومتى فهم عقله المقصود بها ، إن هذه الرسالة تخاطب العقل بمعنى أنها توقظه وتوجهه وتقيم له منهج النظر الصحيح .. لا بمعنى أنه هو الذي يحكم بصحتها أو بطلانها ، وبقبولها أو رفضها ، ومتى ثبت النص كان هو الحكم ، وكان على العقل البشري أن يقبله ويطيعه وينفذه، سواء كان مدلوله مألوفًا له أو غريبًا عليه.." [2].

إن دور العقل – في هذا الصدد – أن يفهم ما الذي يعنيه النص ،وما مدلوله الذي

---

(١) المصدر السابق، ٢ / ١٠٩٧ – ١٠٩٨ بتصرف يسير ، وينظر كذلك مقومات التصور الإسلامي، ص ٤٥، ٢٩٠

(٢) في ظلال القرآن ٢ / ٨٠٦ .

يعطيه حسب معاني العبارة في اللغة والاصطلاح ، وعند هذا الحد ينتهي دوره .. إن المدلول الصحيح للنص لا يقبل البطلان أو الرفض بحكم من هذا العقل ، فهذا النص من عند الله ، والعقل ليس إلهًا يحكم بالصحة أو البطلان وبالقبول أو الرفض لما جاء من عند الله .

وعند هذه النقطة الدقيقة يقع خلط كثير..سواء ممن يريدون تأليه العقل البشري فيجعلونه هو الحكم في صحة أو بطلان المقررات الدينية الصحيحة..أو ممن يريدون إلغاء العقل ، ونفي دوره في الإيمان والهدى ، والطريق الوسط الصحيح هو الذي بيناه هنا..من أن الرسالة تخاطب العقل ليدرك مقرراتها ،وترسم له المنهج الصحيح للنظر في هذه المقررات ،وفي شؤون الحياة كلها ،فإذا أدرك مقرراتها – أي إذا فهم ماذا يعني النص – لم يعد أمامه إلا التصديق و الطاعة والتنفيذ ، فهي لا تكلف الإنسان العمل بها سواء فهمها أم لم يفهمها ، وهي كذلك لا تبيح له مناقشته مقرراتها – متى أدرك هذه المقررات وفق مفهوم نصوصها – ليقبلها أو يرفضها ، ليحكم بصحتها أو خطئها ،وقد علم أنها جاءته من عند الله الذي لا يقص إلا الحق ،ولا يأمر إلا بالخير. والمنهج الصحيح في التلقي عن الله هو ألا يواجه العقل مقررات الدين الصحيح – بعد أن يدرك المقصود بها – بمقررات له سابقة عليها ..إنما المنهج الصحيح أن يتلقى النصوص الصحيحة ويكون منها مقرراته هو، فهي أصح من مقرراته الذاتية وأقوم ... إن العقل ليس إلهًا ليحاكم بمقرراته الخاصة مقررات الله.... وليس هو حكمًا في صحتها أو بطلانها ، وليس هو مأذونًا له في قبولها أو رفضها كما يقول من يبتغون أن يجعلوا من هذا العقل إلهًا يقبل من المقررات الدينية الصحيحة ما يقبل ، ويرفض منها ما يرفض ، ويختار منها ما يشاء ، ويترك منها ما يشاء"[1].

ويقول : " فإذا قرر الله سبحانه حقيقة في أمر الكون ، أو أمر الإنسان ، أو أمر الخلائق الأخرى.. أو إذا قرر أمرًا في الفرائض ، أو في النواهي.. فهذا الذي قرره الله واجب القبول والطاعة ممن يبلغ إليه ، متى أدرك المدلول المراد منه.. وإذا قال سبحانه عن طبيعة الكون والكائنات والأحياء والأشياء – فالحق هو ما قال ،

(١) في ظلال القرآن ، ٢/ ٨٠٧ بتصرف شديد .

وليس للعقل أن يقول – بعد أن يفهم مدلول النصوص والمقررات التي تنشئها – إنني لا أجد هذا في مقرراتي أو في علمي أو في تجاربي ، فكل ما يبلغه العقل في هذا معرض للخطأ والصواب . وما قرره الله سبحانه لا يحتمل إلا الحق والصواب، وإذا قال الله شيئًا في الحكم والربا والحجاب ومنهج الحياة البشرية، فالحق هو ما قاله –سبحانه– وليس للعقل أن يقول : ولكني أرى المصلحة في كذا وكذا مما يخالف عن أمر الله ، أو فيما لم يأذن به الله ولم يشرعه للناس ، فما يراه العقل مصلحة يحتمل الخطأ والصواب وتدفع إليه الشهوات والنزوات ، وما يقرره الله سبحانه لا يحتمل إلا الصحة والصلاح، وكذلك ما قرره الله سبحانه من العقائد والتصورات، أو منهج الحياة ونظامها سواءً في موقف العقل إزاءه " [١].

ويقول : " وحقيقة أن الله جعل حجته على عباده في الرسل والنذارات ولم يجعلها في شهادة الفطرة ولا حكم العقل تجعل الذين يريدون أن يجعلوا من " العقل " حكمًا على " النص" وفيصلًا في "الشريعة ".. يطامنون من غلوائهم ، فلا يتخذون من " العقل " إلهًا ، فهو يخطئ ويصيب ، ويضل ويهتدي ، ويتأثر بشتى المؤثرات والضغوط ، فلا بد أن يكون " النص" لا "العقل" هو الحكم ، وأن يكون دور العقل هو تفهم النص والتقيد به ، لا الحكم على مدلوله بالصحة أو عدم الصحة، أو الحكم بقبوله أو رفضه ، أو تعديله ، فإن هذا لله وحده وليس لأحد من خلقه والعقل البشري من خلقه " [٢].

ج – العقل البشري له طاقة محدودة ، فيجب إعماله في حدود طاقته ومجاله : يقول سيد قطب –رحمه الله– : " فأما محاولة إدراك ما وراء الواقع بالعقل المحدود الطاقة المحدود بحدود هذه الأرض والحياة عليها ، دون سند من الروح الملهم والبصيرة المفتوحة ، وترك حصة للغيب لا ترتادها العقول .. فأما هذه المحاولة فهي محاولة فاشلة أولًا ، ومحاولة عابثة أخيرًا ، فاشلة لأنها تستخدم أداة لم تخلق لرصد هذا المجال ، وعابثة لأنها تبدد طاقة العقل التي لم تخلق لمثل هذا المجال .. ومتى سلّم العقل البشري بالبديهية العقلية الأولى ، وهي أن المحدود لا يُدرك المطلق ، لزمه – احترامًا لمنطقه ذاته – أن يسلم بأن إدراكه للمطلق مستحيل ، وأن

(١) في ظلال القرآن ، ٢/ ٨٠٨ بتصرف .
(٢) مقومات التصور الإسلامي ، ٢٧٧–٢٧٨ .

عدم إدراكه للمجهول لا ينفي وجوده في ضمير الغيب المكنون ، وأن عليه أن يكل الغيب إلى طاقة أخرى غير طاقة العقل .. وأن يتلقى العلم في شأنه من العليم الخبير الذي يحيط بالظاهر والباطن والغيب والشهادة ... وهذا الاحترام لمنطق العقل في هذا الشأن هو الذي يتحلى به المؤمنون ، وهو الصفة الأولى من صفات المتقين " [١].

ويقول أيضًا : "وما يملك العقل وهو محكوم بطبيعته الإنسانية هذه ، أن يصل إلى قانون نهائي ولا أن يدرك حقيقة مطلقة ..فما أجدر الإنسان أن يتأدب في جناب الله، وما أجدر أن يلتزم حدود طبيعته وحدود مجاله، فلا يخبط في التيه بلا دليل" [٢].

وفي ظلال قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾[٣]. يقول – رحمه الله –: " ولا نملك أن نسأل كيف تلبست نفخة الله الباقي بالصلصال المخلوق الفاني ، فالجدل على هذا النحو عبث عقلي ، بل عبث بالعقل ذاته ، وخروج به عن الدائرة التي يملك فيها أسباب التصور والإدراك والحكم ، وكل ما ثارمن الجدل حول هذا الموضوع ، وكل ما يثور إن هو إلا الجهل بطبيعة العقل البشري وخصائصه وحدوده ، وإقحام له في غير ميدانه ، ليقيس عمل الخالق إلى مدركات الإنسان ، وهو سفه في إنفاق الطاقة العقلية ، وخطأ في المنهج من الأساس .. فالعقل حادث والحادث لا يملك وسائل الحكم على الأزلي في ذاته ولا في خلقه .. وهذه البدهية تكفي لتكف العقل عن إنفاق طاقته سفهًا في غير مجاله المأمون " [٤].

وقد كثر نقد سيد قطب للمدرسة العقلية بسبب إعطائها العقل أكبر من حجمه ، حيث جعلته حاكمًا على النصوص ، ومن ثم أوَّلت ما لا يتفق مع مقررات العقل كما زعموا ، حيث يقول : " لا بد أن ننبه إلى منهج مدرسة الأستاذ الشيخ محمد عبده ،المتأثرة بفلسفة غريبة عن الإسلام وهي فلسفة " ديكارت " [٥] مما جعلها تركز

---

(١) في ظلال القرآن – سيد قطب ، ١/ ٤٠ .

(٢) في ظلال القرآن ، ١/ ٣٩٤ .

(٣) سورة الحجر ، الآية ٢٩ .

(٤) في ظلال القرآن ، ٤/ ٢١٤٠ بتصرف .

(٥)هو:رينيه ديكارت ،فيلسوف ورياضي وفلكي فرنسي ، ولد عام ١٥٩٠م،خدم في الجيش وجال في أوروبا ثم استقر في هولندا ،صاحب طريقة الشك المنهجي في التفكير ، مات عام ١٦٥٠م ،انظر : المنجد في الأعلام ص٢٨١ .

تركيزًا [١] شديدًا على العقل وتعطيه أكثر من مجاله في مسائل العقيدة " [٢].

د - العقل ليس وحده أداة التحسين والتقبيح : يقول سيد - رحمه الله - : " إن العمل بشريعة الله يجب أن يقوم ابتداءً على العبودية والطاعة .. وبعد الطاعة يجوز للعقل البشري أن يتلمس حكمة الله - بقدر ما يستطيع - فيما أمر الله به أو نهى عنه - سواءً بينها الله أم لا ، وسواءً أدركها العقل أم لا - فالحكم في استحسان شريعة الله في أمر من الأمور ليس هو الإنسان ، إنما الحكم هو الله .. ومرد الأمر كله إلى الله ، وهذا مقتضى ألوهيته - سبحانه - واستحسان الإنسان أو استقباحه ليس هو الحكم في الأمر ، وما يراه علة قد لا يكون هو العلة ، والأدب مع الله يقتضي تلقي أحكامه بالقبول والتنفيذ سواءً عرفت حكمتها أو علتها أم ظلت خافية " [٣].

ويذكر أيضًا عند حديثه عن الأخلاق : " أنها بجملتها في الإسلام ترتكن إلى ما يحبه الله ويرضاه ، ولا ترتكن إلى مجرد اختيار العقل البشري واستحسانه - كما يقول الفلاسفة والمعتزلة " [٤].

تلك هي نظرة سيد قطب للعقل وموقفه منه وهي كما يقول ليس فيها انتقاص للعقل ولا لدوره في الحياة : " وليس في شيء من هذا الذي نقرره انتقاص من قيمة العقل ودوره في الحياة البشرية فإن المدى أمامه واسع في تطبيق النصوص على الحالات المتجددة بعد أن ينضبط بمنهج النظر وموازينه المستقاة من دين الله وتعليمه الصحيح والمدى أمامه أوسع في المعرفة بطبيعة هذا الكون وطاقاته وقواه ومدخراته ، وطبيعة الكائنات فيه والأحياء ، والانتفاع بما سخر الله له من هذا الكون ومن هذه الكائنات والأحياء ، وتنمية الحياة وتطويرها ، وترقيتها - في حدود منهج الله ، لا كما تبتغي الشهوات والأهواء التي تضل العقل وتغطي الفطرة بالركام " [٥]

---

(١) الصواب: تعتمد اعتمادا (د/ الديلمي) .

(٢) المصدر السابق ٣/ ١٥٨٨ الهامش (١)وينظر في نقده لهذه المدرسة أيضًا ٦/ ٣٩٧٨ .وخصائص التصور الإسلامي ص ١٨-٢٠ .

(٣) في ظلال القرآن ٢/ ٩٧٨ بتصرف .

(٤) مقومات التصور الإسلامي سيد قطب ، ص ٢٩٦

(٥) في ظلال القرآن ، ٢/ ٨٠٨ .

" فالعقل البشري حين يتحرك في إطار الوحي لا يتحرك في مجال ضيق ،إنما يتحرك في مجال واسع جدًا ، يتحرك في مجال هو هذا الوجود كله ، الذي يحتوي عالم الشهادة وعالم الغيب أيضا ، كما يحتوي أغوار النفس ومجالي الأحداث ومجالات الحياة جميعا ..، فالوحي لا يكف العقل عن شيء إلا عن انحراف المنهج، وسوء الرؤية ،والتواء الأهواء والشهوات ! وبعد ذلك يدفعه إلى الحركة والنشاط دفعا ، فهذه الأداة العظيمة التي وهبها الله للإنسان ..العقل .. إنما وهبها له لتعمل وتنشط في حراسة الوحي والهدى الرباني.. فلا تضل إذًا ولا تطغى "[١].

---

(١) المصدر السابق ، ٢/ ١٠٩٩ .

المبحث الثاني

منهجه في الاستدلال وتقرير مسائل العقيدة

يقوم منهج أهل السُّنَّة والجماعة في الاستدلال على مجموعة من القواعد هي بمثابة المعالم الرئيسة لمنهجهم في التعامل مع النصوص الشرعية ، وهي التي تميزهم عن غيرهم من أهل الأهواء والبدع [(١)] .

وفي هذا المبحث عرض لبعض تلك القواعد التي وجدت أن سيد قطب -رحمه الله- قد اتبعها في استدلاله بنصوص الشرع ، ولا أزعم الحصر ولا القصر، ولكنه غاية ما وصل إليه تتبعي لكلامه واستنباطي :

١ - عدم الخوض في الغيبيات والإيمان بظاهر النصوص الواردة فيها :

وهي قاعدة أساسية عند أهل السُّنَّة والجماعة خلافًا للمتكلمين الذين يرفضون هذه القاعدة حتى قال بعضهم : إن التمسك في أصول العقائد بمجرد ظواهر الكتاب والسُّنَّة من غير عرضها على البراهين العقلية والقواطع الشرعية كفر "[(٢)]،

أما سيد قطب - رحمه الله - فقد قرر هذه القاعدة في مواضع متعددة :

* ففي ظلال قوله تعالى: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [(٣)]، يقول : " هكذا ينطلق النص القرآني الكريم في مفتتح السورة ، فتتجاوب أرجاء الوجود كله بالتسبيح لله ، ويهيم كل شيء في السموات والأرض ، فيسمعه كل قلب مفتوح غير محجوب بأحجبة الفناء ، ولا حاجة لتأويل النص عن ظاهر مدلوله ، فالله يقول ، ونحن لا نعلم شيئًا عن طبيعة هذا الوجود وخصائصه أصدق مما يقول لنا الله عنه.. فـ ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ تعني: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ولا تأويل ولا تعديل ! ولنا أن نأخذ من هذا أن كل ما في السموات

---

(١) جمع الباحث : عثمان بن علي حسن هذه القواعد عند أهل السُّنَّة في رسالته : منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السُّنَّة والجماعة ١/ ٢١٩ . فبلغت عشرًا

(٢) شرح الكبرى للسنوسي،المكتبة المصرية ، ب.ت،ص ٥٠٢ .

(٣) سورة الحديد ، الآية (١ .

والأرض له روح يتوجه بها إلى خالقه بالتسبيح ، وإن هذا لهو أقرب تصور يصدقه ما وردت به الآثار الصحيحة ، وتجارب بعض القلوب في لحظة صفائها " [١] . ثم أورد بعض الأحاديث في تسليم الشجر على النبي وحنين الجذع ونحوها .

ويقول أيضًا : " وقد جرينا في هذه الظلال على قاعدة ألا نتزيد بشيءٍ في أمر الغيبيات التي يقص الله علينا طرفًا من خبرها ، وأن نقف عند حدود النص القرآني لا نتعداه.. وهو كاف بذاته لإثبات ما يعرض له من أمور" [٢] .

وعند حديثه عن منع الشياطين من استراق السمع يقول : " فأما الذين يرون في هذا كله مجرد تمثيل وتصوير لحفظ الله للذكر من الالتباس بأي باطل وأنه لا يجوز أن يؤخذ على ظاهره.فسبب هذا عندهم أنهم يجيئون إلى القرآن بتصورات مقررة سابقة في أذهانهم أخذوها من مصادر أخرى غير القرآن ثم يحاولون أن يفسروا القرآن وفق تلك التصورات " [٣] .

٢- الاستدلال بنصوص الكتاب والسُّنَّة :

وهذه القاعدة تتضح لنا من خلال ما سبق بيانه في المبحث الأول عند الحديث عن مصادر التلقي عند سيد قطب حيث تبين لنا من جملة النصوص التي ذُكرت أن سيد قطب يعتمد على نصوص الكتاب والسُّنَّة وما يلحق بهما من مصادر كالعقل والفطرة في الاستدلال على الأحكام الشرعية والعقائد ، وإن كان قد وقع في خطأ فيما يتعلق بموقفه من أحاديث الآحاد في العقيدة ، لكنه كان مباينًا لمنهج الفلاسفة وعلماء الكلام والأديان المقارنة لمخالفتها لمنهج أهل السُّنَّة والجماعة في الاستدلال.

يقول: " إنني لم أجد نفسي مرة واحدة في مواجهة هذه الموضوعات الأساسية - في حاجة إلى نص واحد من خارج هذا القرآن فيما عدا قول رسول الله ﷺ وهو من آثار هذا القرآن" [٤] .

---

(١) في ظلال القرآن ، ٦/ ٣٤٧٧- ٣٤٧٨ .

(٢) في ظلال القرآن ، ٦/ ٣٦٣٤ ، وينظر في الموضوع أيضًا ١/ ٣٩٧ ، ٣/ ١٢٦١ ، ٦/ ٣٦٧٩ .

(٣) المصدر السابق ، ٣٧٣ .

(٤) المصدر السابق ، ٣/ ١٤٢٣ ، وينظر أيضًا ٢/ ٦٨٧ ، ٣/ ١٣٥٨ ، ١٤٨٣ .

٣- رفض التأويل :

وهي من قواعد أهل السُّنَّة في الاستدلال بالنصوص الشرعية ، وقد رفض سيد – رحمه الله – التأويل وبين خطره في أكثر من موضع – وإن كان قد وقع في بعض التأويل أحيانًا – كما يقول عن نفسه .

يقول سيد -رحمه الله - : " إن الطريق الأمثل في فهم القرآن وتفسيره ، وفي التصور الإسلامي وتكوينه أن ينفض الإنسان من ذهنه كل تصور سابق ، وأن يواجه القرآن بغير مقررات تصورية أو عقلية أو شعورية سابقة ،وإن يبني مقرراته كلها حسبما يصور القرآن والحديث حقائق هذا الوجود ، ومن ثم لا يحاكم القرآن والحديث لغير القرآن ، ولا ينفي شيئًا يثبته القرآن ولا يؤوله ! ولا يثبت شيئًا ينفيه القرآن أو يبطله ، وما عدا المثبت والمنفي في القرآن فله أن يقول فيه ما يهديه إليه عقله وتجربته ..

نقول هذا بطبيعة الحال للمؤمنين بالقرآن .. وهم مع ذلك يؤولون نصوصه هذه لتوائم مقررات سابقة في عقولهم وتصورات سابقة في أذهانهم لما ينبغي أن تكون عليه حقائق الوجود " .

ثم يقول معلقًا على هذا في الهامش : " وما أبريء نفسي أنني فيما سبق من مؤلفاتي وفي الأجزاء الأولى من هذه الظلال قد أنسقت إلى شيء من هذا.. وأرجوا أن أتداركه في الطبعة التالية إذا وفق الله وما أقرره هنا هو ما اعتقده الحق بهداية من الله " [1] وهذا الكلام ينبغي أن يكون قاعدة يرد إليه كل خطأ وقع فيه سيد – رحمه الله–.

ويقول أيضًا : " إن العقل البشري ليس هو الذي يصنع مقومات التصور الإسلامي.. إنما يتلقاها من مصدرها الرباني .. وهو متجرد من آية مقررات سابقة .. وعليه أن يتقيد فيما يتلقاه من ذلك المصدر الصحيح بالمدلول اللغوي أو الاصطلاحي للنص الذي وردت فيه.. بدون تأويل – ما دام محكمًا .. فليس له أن يرفض هذا المدلول أو يؤوله – متى كان متعينًا من النص – بحجة أنه غريب عليه،

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٣٠ -١٧٣١ مع الهامش .

أو صعب التصور عنده ، أو أن منطقه لا يقره .. ويستوي في هذه القاعدة العقيدة والشريعة " [١]

ويقول عند تفسير قوله تعالى :﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾: " ولا حاجة لتأويل النص عن ظاهر مدلوله.. ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ تعني:﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ﴾ ولا تأويل ولا تعديل.." ثم أورد مجموعة من الآيات والأحاديث التي تقرر هذه الحقيقة وعقب عليها بقوله : " ولا داعي لتأويل هذه النصوص الصريحة لتوافق مقررات سابقة لنا عن طبائع الأشياء غير مستمدة من القرآن " [٢] . " ولا نميل إلى المنهج الذي تتخذه مدرسة الشيخ محمد عبده في التفسير في محاولة تأويل كل أمر غيبي " [٣] .

ويقول: " وقد تأثر تفسير الأستاذ الإمام لجزء "عمّ" بهذه النظرة تأثرا واضحا، وتفسير تلاميذه [٤]..حيث صرح بعضهم مرات بوجوب تأويل النص ليوافق مفهوم العقل ! وهو مبدأ خطر.. وإذا أوجبنا التأويل ليوافق النص هذه العقول الكثيرة ، فإننا ننتهي إلى فوضى " [٥] .

كما أنكر على "محمد إقبال" [٦] منهجه في معالجة قضايا الفكر الإسلامي ، حيث كانت النتيجة جموحًا في إبراز الذاتية الإنسانية ، اضطر معه إلى تأويل بعض النصوص القرآنية تأويلًا تأباه طبيعتها ، كما تأباه طبيعة التصور الإسلامي " [٧] .

وكذلك ينكر سيد – رحمه الله – على الذين يؤولون النصوص الشرعية لتوافق المخترعات العلمية والنظريات ، كما سيأتي بيانه عند موقفه من الإعجاز العلمي في

---

(١) مقومات التصور الإسلامي –سيد قطب – ص ٤٥ بتصرف .

(٢) في ظلال القرآن ، ٦ / ٣٤٧٧ – ٣٤٧٨ بتصرف.

(٣) المصدر السابق ٣/ ١٥٣١ .

(٤) يقصد بهم : الشيخ رشيد رضا و الشيخ المغربي .

(٥) خصائص التصور الإسلامي ، سيد قطب – ص ٢٠ .

(٦) هو:محمد إقبال بن نور محمد ، شاعر ومفكر وفيلسوف وسياسي هندي ، ولد عام ١٨٧٧م في البنجاب ،وحصل على الدكتوراه من المانيا ورحل الى عدة دول ، عمل محاضرًا ومحاميا وكان له دور في تأسيس دولة باكستان الاسلامية ، له قرابة عشرون كتابًا في السياسة والأدب والفكر ، توفي سُنَّة ١٩٣٨م، انظر : معجم الفلاسفة ص ٧٠ ومابعدها ، وموقع اسلام أون لاين على شبكة الانترنت .

(٧) خصائص التصور الإسلامي ، ص ٢٠ – ٢١ .

القران الكريم " [١] .

كما يرى – رحمه الله – " أن تأويل النصوص لتوافق أهواء معينة هو من صفات أهل الكتاب وهو آفة رجال الدين حين يفسدون في كل أمة ، وأن هذه الآفة موجودة في بعض المنتسبين إلى الدين الإسلامي ، فالتأويل ليس إلا تحريفًا للنصوص عن مواضعها لتوافق الأهواء " [٢] ، وسيأتي بيان موقفه من التأويل عند الحديث عن توحيد الأسماء والصفات ومنهجه فيها .

٤- الرد عند التنازع إلى الكتاب والسُنّة :

وهذه القاعدة مما تميز به أهل السُّنَّة والجماعة عن أهل البدع ، فالله تعالى يقول: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [٣] . " والرد إلى الله تعالى ردّ إلى كتابه ، والرد إلى رسوله رد إلى سُنَّته " [٤] .

وقد قرر سيد قطب – رحمه الله – هذه القاعدة قائلًا : " إن المرجع فيما تختلف فيه وجهات النظر في المسائل الطارئة المتجددة والأقضية التي لم ترد فيها أحكام نصية .. إن المرجع هو الله ورسوله..أي شريعة الله وسُنَّة رسوله..﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ ، وبهذا يبقى المنهج الرباني مهيمنًا على ما يطرأ على الحياة من مشكلات وأقضية كذلك أبد الدهر في حياة الأمة المسلمة ، وتمثل هذه القاعدة نظامها الأساسي ، الذي لا تكون مؤمنه إلا به ، ولا تكون مسلمة إلا بتحقيقه .. إذ هو يجعل الطاعة بشروطها تلك ، ورد المسائل التي تجد وتختلف فيها وجهات النظر إلى الله ورسوله شرط الإيمان وحد الإسلام ، شرطا واضحًا ونصًا صريحًا ﴿ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ﴾ [٥] .

ويقول أيضا : " فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ ،أي: فردوه إلى أصول التصور الإسلامي

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٢٨٢ ، بتصرف –٣١ .
(٢) المصدر السابق ١/ ٤١٩ .
(٣) سورة النساء ، الآية ٥٩ .
(٤) ينظر : مجموع فتاوى ابن تيمية ٣/ ٢٥٠ ، شرح الطحاوية لابن أبي العز ،ص ١٥ ، ٧٧٧ .
(٥) في ظلال القرآن – سيد قطب – ٢/ ٦٨٧ .

الذي جاءكم من عند الله ، وإلى أصول الشريعة الإلهية التي جاء بها رسول الله .. لا إلى أي أصل آخر .. ولا إلى أي ميزان آخر .. وفي هذه الحدود البينة يجيء دور الاجتهاد لاستنباط الأحكام الفرعية وتطبيقها على الأقضية المتجددة في واقع البشرية .. برد هذه الوقائع والأقضية التي لا تنتهي إلا بانتهاء الحياة ، إلى الله والرسول ، أي إلى الأصول التي سنَّها الله للحياة وبلغها عنه رسول الله ﷺ " (١) .

٥- درء التعارض بين العقل والنقل :

العقل الصريح لا يخالف النص الصحيح عند أهل السُّنَّة والجماعة وقد قرر شيخ الإسلام ابن تيمية هذه القاعدة في كتاب بهذا الاسم (درء تعارض العقل والنقل) وقد ذكرنا قبل – عند الحديث عن موقف سيد قطب من العقل – أنه يرى أن العقل الصريح لا يناقض الشرع الصحيح وأنه " لا يقع التناقض أو التصادم أبدًا متى استقام العقل البشري والتزم حدوده " (٢) .

" فنصوص القرآن الكريم ومدلولاته لا يصح أن يقال أنها تصطدم مع العقل " (٣) .

٦- العمل بالحكم من النصوص والإيمان بالمتشابه :

اختلف العلماء في بيان معنى المحكم والمتشابه في القرآن الكريم على أقوال عديدة(٤) ، والذي عليه أئمة السلف: أن الآيات المحكمات هي : الآيات واضحة الدلالة التي لا التباس فيها على أحد ، والتي فيها حجة الرب وعصمة العباد ، ودفع الباطل ، وأن الآيات المتشابهات هي : التي فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم والتي ابتلى الله بها العباد كما ابتلاهم بالحلال والحرام، وأن الموقف الصحيح ما ذكره الله تعالى في قوله ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ

(١) مقومات التصور الإسلامي – سيد قطب – ص ٣٤- ٣٥ بتصرف ، وخصائص التصور ص ٤٣ .
(٢) مقومات التصور الإسلامي – سيد قطب – ص ٤٦ .
(٣) في ظلال القرآن – سيد قطب – ٦/ ٣٩٧٩ بتصرف .
(٤) ينظر كلامهم في : الإتقان في علوم القرآن – للإمام السيوطي ، ٢/ ٣ وما بعدها حيث ذكر أكثر من ثمانية أقوال .

يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[1].

فقوله تعالى: ﴿ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي أصله الذي يرجع إليه عند الاشتباه، وقوله ﴿ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ أي تحتمل دلالتها موافقة المحكم ، وقد تحتمل شيئًا آخر من حيث اللفظ والتركيب لا من حيث المراد.. فمن رد ما اشتبه إلى الواضح منه ، وحكم محكمه على متشابه فقد اهتدى ، ومن عكس انعكس[2].

وموقف سيد قطب – رحمه الله – من المحكم والمتشابه موافق لما ذكرنا عن السلف فهو يقول عند تفسيره الآية ".. يكشف الله – الذين في قلوبهم زيغ – الذين يتركون الحقائق القاطعة في آيات القرآن المحكمة ، ويتبعون النصوص التي تحتمل التأويل ، ليصوغوا حولها الشبهات ، ويصور سمات المؤمنين حقًا ، وإيمانهم الخالص وتسليمهم لله في كل ما يأتيهم من عنده بلا جدال ..

وكمثال للمحكم والمتشابه وموقف الناس منه ، ذكر – سيد – رواية في سبب نزول الآية وهي أن نصارى نجران قالوا للنبيﷺ : ألست تقول عن المسيح : إنه كلمة الله وروحه ، يريدون أن يتخذوا من هذا التعبير أداة لتثبيت عقيدتهم في عيسى – عليه السلام – وأنه ليس بشرًا ، إنما هو روح الله – على ما يفهمون هم من هذا التعبير، بينما هم يتركون الآيات القاطعة المحكمة التي تقرر وحدانية الله المطلقة ، وتنفي عنه الشريك والولد في كل صورة من الصور ..

ثم يقول : " على أن نص الآية أعم من هذه المناسبة ، فهي تصور موقف الناس على اختلافهم من هذا الكتاب الذي أنزله الله على نبيهﷺ متضمنًا حقائق التصور الإيماني ومنهج الحياة الإسلامية ومتضمنًا كذلك أمورًا غيبيةً لا سبيل للعقل البشري أن يدركها، ولا أن يدرك منها أكثر مما تعطيه النصوص بذاتها .

فأما الأصول الدقيقة للعقيدة والشريعة فهي مفهومة المدلولات قاطعة الدلالة مدركة المقاصد– وهي أصل هذا الكتاب – وأما السمعيات والغيبيات.. فقد

(١) سورة آل عمران ، الآية (٧) .

(٢) ينظر كلام السلف في :

١– تفسير الطبري ١٧١ وما بعدها .

٢– تفسير ابن كثير ، تحقيق د/ البناء ، دار بن حزم ، بيروت ، ط١ ، عام ١٤١٩م، ٢/ ٦٧٩ وما بعدها .

جاءت للوقوف عند مدلولاتها القريبة والتصديق بها لأنها صادرة من هذا المصدر (الحق) ويصعب إدراك ماهيتها وكيفياتها .. وهنا يختلف الناس حسب استقامة فطرتهم ، أو زيفها في استقبال هذه الآيات وتلك، فأما الذين في قلوبهم زيغ وانحراف وضلال عن سواء الفطرة فيتركون الأصول الواضحة الدقيقة التي تقوم عليها العقيدة والشريعة والمنهاج العملي للحياة ويجرون وراء المتشابه الذي يعول في تصديقه على الإيمان بصدق مصدره ، والتسليم بأنه هو الذي يعلم(الحق) كله، بينما الإدراك البشري نسبي محدود المجال ، كما يعول فيه على استقامة الفطرة التي تدرك بالإلهام المباشر صدق هذا الكتاب كله ،وأنه نزل بالحق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .. يجرون وراء المتشابه لأنهم يجدون فيه مجالاً لإيقاع الفتنة بالتأويلات المزلزلة للعقيدة والاختلافات التي تنشأ عن بلبلة الفكر نتيجة إقحامه فيما لا مجال للفكر في تأويله ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾" [١].

وعند حديثه عن آيات السحر وبيانه لحقيقة السحر وتأثيره يقول : "والمفهومات الواضحة المحكمة في هذه الآيات تغني عن السعي وراء المتشابه فيها " [٢] .

(١) في ظلال القرآن ، ١/ ٣٦٩ - ٣٧٠ ، بتصرف .
(٢) المصدر السابق ، ١/ ٩٨ .

المبحث الثالث

موقفه من الفلسفة وعلم الكلام

قبل الحديث عن موقف سيد قطب من الفلسفة وعلم الكلام يحسن أن اذكر تعريفًا موجزًا بهذين المصطلحين كي يمكن تصور حقيقتهما ولو في الجملة وذلك كالأتي:

أولا : تعريف الفلسفة :

هي : كلمة يونانية مركبة من كلمتي (فيلا) بمعنى محبة، و (سوفيا) بمعنى الحكمة .والفيلسوف هو الحكيم ، وقد أطلقت الفلسفة قديمًا على دراسة المبادئ الأولى ، وتفسير المعرفة تفسيرًا عقليًا [١] .

وكانت الغاية منها عند أصحابها: البحث عن الحقيقة من خلال النظر العقلي المتحرر من كل قيد أو سلطة ، وقد مرت الفلسفة بعدة مراحل ، ونشأت في ظلها عدة مدارس تقوم الكثير منها على جحد الإله الحق(الصانع) والقول بقدم العالم ، وجحد النبوات والوحي والغيبيات[٢]

ثانيا : تعريف علم الكلام :

هو: علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية [٣] بإيراد الحجج العقلية ودفع شبه الخصوم عنه [٤] .

---

(١) الموسوعة الميسرة في الأديان المعاصرة ، الندوة العالمية للشباب الإسلامي ، الرياض ، ط٣ ، عام ١٤١٨هـ ، ٢/ ١١١٨ وما بعدها . والمعجم الوسيط ، د/ إبراهيم أنيس وآخرون ، دار الفكر -بيروت ، ط٢ ، ب . ت ، ٢ / ٧٠٠ .

(٢) الموسوعة الميسرة ، ٢ / ١١١٩-١١٢١ .

(٣) يقول الشيخ الدكتور/ عبد الوهاب الديلمي -حفظه الله- معلقًا على هذا :" هذا الوصف وإن كان ادّعاه أصحاب علم الكلام ليس على إطلاقه ، بل قد يؤدي أحيانًا إلى الشك في حقائق الإيمان ، والدليل على ذلك أن أساطين هذا العلم ندموا في آخر حياتهم على أنهم أفنوا أوقاتهم فيما يوقع في الحيرة ، ولا يوصل إلى حقيقة" .

(٤) ينظر : شرح المقاصد للتفتازاني ، عالم الكتب ، بيروت ، ط٢ ، عام ١٤١٩هـ ، ١/ ١٦٦ ، دراسات في الفرق والعقائد ، د/ عرفان عبد الحميد، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط١ ، عام ١٤٠٤ هـ، ص ١٣٦ .

ويرجع الباحثون في علم الكلام سبب تسميته بهذا الاسم إلى أحد الأمور الآتية :

أ – لكون أهم مسألة وقع فيها الخلاف بين أهل القبلة هي مسألة كلام الله تعالى.

ب – لأنه إنما يتحقق بالمباحثة وإدارة الكلام بين الجانبين.

ج – لأنه أكثر العلوم خلافًا ونزاعًا فيشتد افتقاره إلى الكلام مع المخالفين والرد عليهم.

د – لأن أبوابه ومسائله عُنونت بقولهم " الكلام في كذا " [١] .

هـ– لأن المتكلمين لم يفيدوا علمًا لم يكن معروفًا ، وإنما أتوا بزيادة كلام لا يفيد .

و – لأن المتكلمين تكلموا حيث كان السلف الصالح يسكتون.[٢]

ثالثًا : العلاقة بين الفلسفة وعلم الكلام :

الباحث في تاريخ علم الكلام والفلسفة يجد أن أكثر المتكلمين وإن كانوا أرادوا الدفاع عن العقيدة في وجه الفلاسفة والملاحدة إلا أنهم تابعوا الفلاسفة في اعتمادهم على العقل والبراهين العقلية المجردة ، وكانت الفلسفة مصدرًا أساسيًا عند المعتزلة كما يقول الشهرستاني[٣]، حيث ذكر أن مقالة نفي الصفات إنما شرعت فيها– أي المعتزلة – بعد مطالعة كتب الفلاسفة وبلغ الاعتماد على الفلاسفة عند أهل الكلام إلى أن نقلوا عنهم واستمدوا منهم مقولاتهم في الله وصفاته وأفعاله [٤] .

---

(١) شرح المقاصد للتفتازاني ، ١/ ١٦٤ .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ، ص ١٦ ، ٢٤٢ ، ودراسات في الفرق د/ عرفان عبد الحميد ، ص ١٣٧ .

(٣) هو : محمد بن عبد الكريم الشهرستاني ، أحد الأئمة الأشاعرة ولد عام ٤٧٩هـ له تصانيف عديدة منها : الملل والنحل ، ونهاية الإقدام ، مات سُنَّة ٥٤٨هـ ، انظر : وفيات الأعيان ٣/ ٢٩٣ ، وسير أعلام النبلاء ، ٢٢/ ٣٦٤ . ومقدمة الملل والنحل ص ٣-٧

(٤) الملل والنحل ، للشهرستاني ، دار الفكر ، بيروت ، ب . ت ، ص ٤٦ وما بعدها ، حيث قارن بين المعتزلة وبين الفلاسفة عند استعراض أراء رجال المعتزلة في أكثر من موضع ، مما يدل على أنه يرى أن المعتزلة تأثرت كثيرًا بالفلاسفة في مقولاتها ، وينظر في ذلك : منهج الشهرستاني في كتابه الملل والنحل ، د/ محمد السحيباني ، دار الوطن ، الرياض ، ط عام ١٤١٧هـ ، ص ٣٢٨ .

ويرى أبو الحسن الأشعري[١]، وهو الخبير بأهل الكلام أن النفاة للصفات أخذوا ذلك عن إخوانهم من المتفلسفة ، وإن كانوا لم يستطيعوا أن يظهروا ما أظهره الفلاسفة فأظهروا معناه بسبب خوفهم من السيف لو أفصحوا[٢] .

رابعًا : موقف أهل السُنَّة والجماعة من الفلسفة وعلم الكلام :

غني عن البيان موقف الإسلام من الفلسفة وخاصة الفلسفة الأرسطية الوثنية المنسوبة إلى المعلم الأول- حسب زعم الفلاسفة- أرسطو[٣]الذي كان يقول: " بقدم العالم ، وإنكار البعث ، ونفي علم الله بالجزئيات، وغيرها من المباحث، والذي فُتن به بعض المسلمين قديمًا، وصار منهم من يقرر فلسفته ويدافع عنها، كابن سيناء[٤] وغيره، وحاولوا أن يمزجوا(الشريعة) بـ (الحكمة) اليونانية ، وكلام الأنبياء بكلام الفلاسفة!! إلا أن الفلسفة ما زالت في العقل الإسلامي خارجة عن العقيدة الربانية، مضادة لها ، يصعب المزج والخلط بينهما لسبب بسيط ، وهو أن مصدر العقيدة الإسلامية هو الوحي ، ومصدر الفلسفة هو العقل الإغريقي الغارق في الوثنية ، ولا يمكن الخلط بين الإلهي والوثني ؟! .

لهذا كان موقف أهل السُّنَّة والجماعة من الفلسفة موقف الرفض والذم لها ، لمباينتها لمنهج الإسلام، وكان لهم جهود في مواجهتها ونقدها ، وبيان فساد مقالات

---

(١) هـو :علي بن إسماعيل بن علي بن إسحاق الأشعري ، أبو الحسن من نسل الصحابي – أبي موسى الأشعري ﷺ ، يعتبر مؤسس مذهب الأشاعرة ،كان من الأئمة المجتهدين و المتكلمين ، ولد عام ٢٦٠ وقيل ٢٧٠، نافح عن منهج المعتزلة ثم رجع في نهاية حياته الى منهج السلف كما صرح بذلك في كتاب (الابانة) ، له عدة مؤلفات، توفي سُنَّة ٣٢٤هـ .انظر :سير أعلام النبلاء ١٥/ ٨٥ ، وتاريخ بغداد ١١/ ٣٤٧ .

(٢) مقالات الإسلاميين ، لأبي الحسن الأشعري ، تحقيق / محمد محي الدين ، مكتبة النهضة ، القاهرة ، ط٢ ، عام ١٣٨٩هـ ، ٢/ ١٧٧ .

(٣)هو : أرسطو طاليس بن نيقوماخوس ، من بلاد مقدونيا ، تتلمذ على أفلاطون ، ويسمى عند الفلاسفة المعلم الأول ، لأنه واضع التعاليم المنطقية ، انظر : الملل والنحل الشهرستاني ،ص٣٤٧

(٤) هو : الحسين بن عبد الله بن سيناء ، فيلسوف مشهور ، كان هو وأبوه من القرامطة الباطنية ، ولد في بخارى سُنَّة ٣٧٠هـ ، وكان طبيبًا وشاعرًا له عدة مصنفات توفي بهمذان سُنَّة ٤٢٨هـ ، انظر : سير أعلام النبلاء ، ١١/ ١١٨ ومعجم المؤلفين ٤/ ٢٠ .

أهلها ، والإفتاء بحرمتها ، وحرمة نقلها ونشرها بين الناس. [١] .

إلى أن جاء الشيخ مصطفى عبد الرازق [٢] في بداية القرن الماضي ، فقرر مصطلح (الفلسفة الإسلامية) ودعا إليها ، وأراد بذلك أن يرد على آراء بعض المستشرقين التي كانت تقول : بأنه لم يكن لعلماء المسلمين جهود في الفلسفة ، وإنما كانوا مجرد نقلة وشارحين لتراث الإغريق ، فأراد الشيخ أن يكشف أن للمسلمين جهودًا في علم الفلسفةو تطويرها ، وهو يقصد بذلك تراث المتكلمين الذين كان بينهم وبين الفلاسفة معارك جدلية في القضايا الإلهية !! [٣] .

ولكن الحقيقة أن المتكلمين لم ينطلقوا في نقدهم للفلسفة من أصول المنهج الإسلامي الأصيل المستمد من الوحي ومن تراث السلف كما فعل أهل السُّنَّة والجماعة ، وإنما انطلقوا من خلال أصول عقلية ، كامتناع تسلسل الحوادث، وأن ما لا يخلوا من الحوادث فهو حادث ، وأن ما قامت به الأعراض فهو جسم.. ونحو ذلك من الأصول الكلامية ، فهم وإن كانوا انتصروا لدين الإسلام في بعض الجوانب، إلا أنهم قد أدخلوا على المسلمين شرًا عظيمًا ، بما انتحلوه من علوم كلامية ومنطقية ذات أصول فلسفية فأثارت الشبهات ، وأفسدت الكثير من الفطر والفهوم.

ولذا نجد أساطين المتكلمين يعترفون في أواخر أعمارهم بالحيرة والاضطراب والخطأ في مناهجهم والفشل في جداهم ،والباحث في تراث السلف يجد من نفسه قناعة راسخة بأن موقف السلف الرافض للفلسفة والناقد لها لم يكن من فراغ ،بل لأنهم وجدوا أن الفلسفة وما نتج عنها تراث أجنبي ، إغريقي النسب ، وثني المصدر ، مباين لمنهج الإسلام في المعرفة والاستدلال والجدل ، ليس له علاقة بعلوم الإسلام ، ولم يعرفه المسلمون الأوائل ، أو يؤثر عن النبي ﷺ أو الصحابة أو التابعين وأئمة الهدي منها شيء ، وإنما تسربت هذه العلوم إلى الأمة الإسلامية

---

(١) ينظر في ذلك : مجموع فتاوى ابن تيمية ،المجلد التاسع ، " المنطق ، وكذا ٤/ ٥٠ ، ٥٢ ، ٩٠ ، ١٠٦/٦ ، ١٦/ ١٣٠ ، ٤٥٢ ، ١٧/ ٢٣٦ ، ٢٨٦/ ٢٩٤ ، ٢٣٦/ ٣٥٦ ، والصفدية لابن تيمية وصون المنطق للسيوطي ، وشرح الطحاوية ٤٠٢ وما بعدها .

(٢) هو : مصطفى بن حسن بن أحمد عبد الرازق ،ولد في المنيا بمصر عام ١٨٨٥م، وتتلمذ على محمد عبده ، ثم درس في باريس وعاد فعمل أستاذا للفلسفة ثم وزيرًا للأوقاف ثم شيخا للأزهر ، توفي عام ١٩٤٦م ، انظر : الأعلام للزركلي ٧/ ٢١٣ . .

(٣) الموسوعة الميسرة ، ٢/ ١١٢١ .

من خلال احتكاكها بالحضارات المختلفة بعد الفتوحات الإسلامية ، ومن خلال حركة الترجمة غير المنضبطة وغير المقننة في عصر العباسيين.

ولذلك نجد علماء السلف يحذرون من علم الكلام باعتباره ناتجا من نواتج الفلسفة الإغريقية ، وقد أورد شارح الطحاوية عددًا من النقول عن أهل العلم في ذمهم لعلم الكلام والتحذير منه ، وبيان أن ما أرادوه من الدفاع عن العقيدة إنما زادت به الشكوك والشبه وكان حالهم كما قيل:

يحللون بزعم منهم عقدًا ∴ وبالذي وضعوه زادت العقد

يقول أبو يوسف[١]- رحمه الله - : " من طلب الدين بالكلام تزندق " [٢]

يقول الشافعي[٣] -رحمه الله-: " حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال، ويطاف بهم القبائل والعشائرويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسُّنَّة وأقبل على الكلام" [٤].

يقول أبو حامد الغزالي[٥]-رحمه الله- :وهو ممن بلغ النهاية في علم الكلام : "وأما منفعته- أي علم الكلام- فقد يُظن أن فائدته كشف الحقائق ومعرفتها على ما هي عليه وهيهات، فليس في الكلام وفاءٌ بهذا المطلب الشريف، ولعل التخبيط والتضليل فيه أكثر في الكشف والتعريف،اسمع هذا ممن خبر الكلام ثم قلاه بعد حقيقة الخبرة وبعد التغلغل فيه إلى منتهى درجة المتكلمين ، وجاوز ذلك إلى التعمق في علوم أخرى تناسب علم الكلام كعلم المنطق والفلسفة والأصول واللغة ، وتحقق أن الطريق إلى المعرفة من هذا الوجه مسدود ، ولعمري لا ينفك الكلام عن

---

(١) هو : يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري ، الكوفي ، أبو يوسف ، إمام مجتهد ، وعلامة محدث ، قاضي القضاة، ولد سُنَّة ١١٣هـ ، صاحب أبا حنيفة وتفقه عليه ، توفي سُنَّة ١٨٢هـ ، انظر:سير أعلام النبلاء ، ٨/ ٥٣٥.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ، ص ١٧ ، وسير أعلام النبلاء ٨/ ٥٣٧ .

(٣) هو : محمد بن إدريس بن العباس الشافعي – القرشي ، أحدا لأئمة الأربعة ، كان من أشعر الناس واعرفهم بالفقه والحديث ، ولد بغزة سُنَّة ١٥٠هـ ، وتوفي بالقاهرة سُنَّة ٢٠٤هـ ، انظر : وفيات الأعيان لأبن خلكان ،٤/ ١٦٣

(٤) شرح العقيدة الطحاوية ص ١٨ ، وسير أعلام النبلاء ، ١٠ / ٢٩ .

(٥) هو : محمد بن محمد بن محمد الطوسي الغزالي ، اشتغل بعلم الكلام والفلسفة ردحًا من الزمن ، ثم انتقل إلى التصوف ،وأقبل في آخر حياته على الحديث ، مات سُنَّة ٥٠٥هـ ، انظر : وفيات الأعيان لابن خلكان ، ٤/ ٢١٦ ، وينظر شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٢٣٦-٢٣٨

كشف وتعريف وإيضاح لبعض الأمور، ولكن على الندور" [١].

كما أورد كلامًا لبعض علماء الكلام الذين تراجعوا عنه وندموا على الاشتغال به ومن ذلك: قول الفخر الرازي [٢]- رحمه الله -: " لقد تأملت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفي عليلًا ولا تروي غليلًا ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن ، اقرأ في الإثبات: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ٥ ﴾[٣]. واقرأ في النفي ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ ﴾[٤].

ثم قال : " ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي " [٥].

١ - يقول الشهرستاني :

لعمري قد طفت المعاهد كلها .·. وسيرت طرفي بين تلك المعالم

فلم أرَ إلا واضعًا كف حائر .·. على ذقن أو قارعًا سن نادم

٢ - ويقول الجويني[٦] : " يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام ، فلو عرفت أن الكلام يبلغ بي إلى ما بلغ ما اشتغلت به " . وقال عند موته : " لقد خضت البحر الخضم وخليت أهل الإسلام وعلومهم ، ودخلت في الذي نهوني عنه ، والآن فإن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لابن الجويني ، وها أنا ذا أموت على عقيدة أمي " [٧].

وأهل السُّنَّة والجماعة من السلف ومن بعدهم عندما يذكرون مثل هذه الأقوال وتلك المواقف للمتكلمين إنما يقصدون التحذير والتنفير من سلوك مناهج المتكلمين والفلاسفة وبيان ما يؤول إليه حال من سلكها .

---

(١) إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد الغزالي ، ١/ ٩٧ .

(٢) هو : محمد بن عمر بن الحسن التيمي ، فخر الدين الرازي ، ولد سُنَّة ٥٤٤ هـ كان فقيهًا أصوليًا وفيلسوفًا متكلمًا من رؤساء الأشاعرة ، توفي سُنَّة ٦٠٦هـ ، انظر : شذرات الذهب ، ٥/ ٢١ ، والأعلام للزركلي ٦/ ٢١٢.

(٣) سورة طه ، الآية ٥

(٤) سورة الشورى ، ١١ .

(٥) شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٢٤٤ .

(٦) هو : عبد الملك بن عبد الله بن يوسف ،أبو المعالي الجويني ، إمام الحرمين أحد أئمة الأشاعرة ،، ولد سُنَّة ٤١٩هـ ، له تصانيف كثيرة على مذهب المتكلمين ، وذكر أهل السير رجوعه إلى مذهب السلف، توفي سُنَّة ٤٧٨هـ ، انظر: سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي مؤسسة الرسالة ب٠ت ط١ / ١٤٠٧هـ ، ١٨/ ٤٦٨ وما بعدها، وشذرات الذهب ٣/ ٣٥٨ .

(٧) شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٢٤٥.

رابعا : موقف سيد قطب – رحمه الله – من الفلسفة وعلم الكلام :

أصبحت حمى (الفلسفة الإسلامية) و (علم الكلام) منتشرة في أغلب الجامعات والكليات الشرعية في العالم الإسلامي ، وخاصة منذ بداية القرن الماضي !! ، حيث ابتليت أغلب مناهج العقيدة الإسلامية بمباحث الفلسفة وعلم الكلام .

وقد كان لسيد قطب – رحمه الله – من الفلسفة وعلم الكلام موقف تميز به عن كثير من الدعاة المعاصرين ، حيث عمل على إبراز تميز العقيدة الإسلامية عن الفلسفة وعلم الكلام فألف كتابه الفذ " خصائص التصور الإسلامي ومقوماته " والذي كشف من خلاله الخصائص الكبرى للعقيدة الإسلامية وهي (الربانية ، والثبات ، والشمول ، والتوازن ، والإيجابية ، والواقعية ، والتوحيد) وبيّن أن هذه الخصائص هي التي جعلت العقيدة الإسلامية تتميز كثيرًا عن الفلسفة ومباحث علم الكلام ليصبح بينهما فارق شاسع هائل لا يمكن معه الخلط ولا الجمع بينهما.

ويمكن بيان موقف سيد قطب من الفلسفة وعلم الكلام و منهجه في التعامل معهما من خلال المعالم الآتية :

١ـ قيام منهج الفلسفة والفكر الغربي عمومًا على التصورات الجاهلية المعادية للدين الحق :

عاش سيد قطب – رحمه الله – ردحًا من حياته في دراسة كثير من العلوم والمعارف الإنسانية وخلص منها إلى نتيجة قررها بقوله : " إن اتجاهات الفلسفة بجملتها ، واتجاهات (تفسير التاريخ الإنساني) بجملتها ، ومباحث (الأخلاق) بجملتها ، واتجاهات دراسة (الأديان المقارنة) بجملتها ، واتجاهات (التفسيرات والمذاهب الاجتماعية) بجملتها ، كلها في الفكر الجاهلي – أي غير الإسلامي – قديمًا وحديثًا – متأثرة تأثرًا مباشرًا بتصورات اعتقادية جاهلية ، وقائمة على هذه التصورات، ومعظمها – إن لم يكن كلها – يتضمن في أصوله المنهجية عداءً ظاهرًا أو خفيًا للتصور الديني جملة ، وللتصور الإسلامي على وجه الخصوص " [1] .

وبعد أن قرر أن مناهج الفلسفة والفكر الغربي عمومًا تقوم على رواسب متمثلة

(١) معالم في الطريق ، ص ١٤٠ ، بتصرف يسير .

في العداء لأهل التصور الديني جملة بسبب الملابسات النكدة ، والحروب التي قامت في التاريخ الأوربي بين المشتغلين بالعلم وبين الكنيسة ، بيَّن أن تلك المناهج ونتاجها الفكري سيكون أشد عداءً للتصور الإسلامي ، من خلال تمييع العقيدة والمفهومات الإسلامية ، وتحطيم الأسس التي يقوم عليها تميز المجتمع المسلم في كل مقوماته ، وتسميم الينبوع الإسلامي الصافي ، وبالتالي تجب الحيطة والحذر أثناء دراسة العلوم البحتة من أيّة ظلال فلسفية تتعلق بها ، كما يجب أن نستلهم مقرراتنا من القرآن الكريم ونرمي بكل رواسب الثقافات الجاهلية قديمها وحديثها على السواء [1].

٢ـ ضلال الفلاسفة في تصوراتهم للإله والكون والوجود ، وعلاقة الخالق بالمخلوقات :

بيَّن سيد قطب – رحمه الله – في مواطن كثيرة من كتبه ضلال الفلاسفة والمتكلمين في تصوراتهم للإله سبحانه ، وكذا ضلالهم في تصورهم للكون والوجود ، ولعلاقة الإله بالمخلوقات عمومًا ، ويعتبر كتابه " خصائص التصور الإسلامي ومقوماته" موضوعًا بالدرجة الأولى لبيان التصور الحق الذي جاء به الإسلام ، مقارنة مع التصورات المنحرفة بما فيها تصورات الفلاسفة والمتكلمين .

يقول – رحمه الله – : " نقول : حيثما حاول العقل البشري أن يسلك طريقًا غير هذا الطريق – الوحي – جاء بالخبط والتخليط الذي لم يستقم في تاريخ الفكر البشري .. يستوي في ذلك الجاهليات الوثنية .. والجاهليات اللاهوتية... والجاهليات الفلسفية وحيثما نظر الإنسان في هذه التصورات طالعته بالمضحكات... وهذا المشهد يتجلى بوضوح كامل حين يراجع الإنسان ذلك الجهد الطويل للفلسفة في شتى عصورها وفي شتى مذاهبها ، إن الإنسان ليتملى حقائق العقيدة الإسلامية في القرآن ، ثم يحاول أن يتلمسها في الفلسفة ،فكأنما يخرج من الروض النضير ،الحي المكشوف، المتفتح الطليق ،إلى القلعة الكئيبة من قلاع القرون الوسطى، المليئة بالمنعرجات والسراديب .. ذات الهواء الراكد المكتوم ... حيث لا يصل أبدًا إلى الحقيقة .

---

(١) ينظر كلامه بتوسع في : معالم في الطريق ص ١٤٢ – ١٤٨ .

لقد عجزت الفلسفة دائمًا - بجميع مذاهبها - عن الاهتداء إلى الإله الحق، و(واجبُ الوجودِ) أو (السببُ الأول) أو (الأحدُ) الذي اهتدت إليه الفلسفة لم يكن أبدًا هو (الله) الحق الذي يهدي إليه (الإسلام) في جميع الرسالات التي جاء بها الرسل من عند الله إن الإله الذي تبحث عنه الفلسفة - حين تبحث عن الله - هو قانون العالم وهيكله ، وحياته ومشيئته ، فلو كان ثمة عقل يدبر هذا الكون فإن الفلسفة تود أن تعرفه وتدرك كنهه حتى تسايره - في الفكر - مع الاحترام - فإذا لم يكن ثمة عقل مدبر ، فإنها تود أن تعرف ذلك أيضًا حتى تواجهه بغير خوف هذا هو إله الفلسفة ، وهو لا يعنينا في شيء لأن بحث الفلسفة عنه على هذا النحو لم يقدها يومًا إلى (الحقيقة) ! .

إن الإله الحق هو " الله " الذي هدى إليه الإسلام ، وهو خالق الكون ، وليس هو " قانون العالم وحياته ومشيئته "، هو: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[1]، وهو الذي يدبر هذا العالم ويحركه بقدره ، ولا يدري أحد كيف يتعلق قدره بهذا العالم لأن أحدًا لم يزوَّد بمعرفة كيفيات فعل الله ، إنما الإنسان مزود فقط بإدراك آثار فعل الله " [2] .

" ولقد ضل كل من حاول من الفلاسفة والمتكلمين وصف كيفيات أفعاله سبحانه وخلطوا خلطًا شديدًا " [3].

" وكذلك عجزت الفلسفة عن الاهتداء إلى حقيقة العلاقة بين الله والعالم ، وإلى كيفية تعلق مشيئته بما يجري في هذا العالم ، لأنها حاولت أن تفسر هذه العلاقة، وأن تصور هذه الكيفية في حدود المألوف للعقل البشري في عالم الخلائق ، والله ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَىۡءٞۖ ﴾.. وكذلك جاء كل ما تصوره الفلسفة مختلًا ، لأن القاعدة التي قام عليها مختلة ، وبمثل هذا العجز عالجت حقيقة أفعال الإنسان والعلاقة بين الإنسان والكون ، وضربت في التيه في قضية " الجبر والاختيار " كما ضربت في التيه في قضية "المعرفة " ووقفت بالعقل في مقابل الحس والغريزة ، وبالحياة في مقابل

(١) سورة طه ، الآية ٥٠ .
(٢) مقومات التصور الإسلامي ، ص ٤٦ - ٤٧ بتصرف .
(٣) في ظلال القرآن ، ٣/ ١٣٩٣ .

المادة ، وسارت بهذه القضايا في تلك الدروب المسدودة قرنًا بعد قرون ، ومدرسة بعد مدرسة.. وما تزال !! ...

إن هناك ظاهرة لم تتخلف قط في تاريخ الفكر والاعتقاد، وهي أنه حيثما أخذت الفلسفة من العقيدة أفادت واهتدت إلى بعض جوانب الحقيقة ، وحيثما أخذت العقيدة من الفلسفة خسرت وأصيبت بالتخليط والانحراف والتعقيد " [١].

وقد استعرض سيد قطب – رحمه الله – تصور الفلاسفة للإله وعلاقته بالكون، وأوضح سخافة أقوال الفلاسفة الكبار !! في كلامهم عن خلق الكون وعلاقته بالإله مقارنًا ذلك بالتصور الإسلامي الواضح في هذه القضايا[٢].

ويخلص – رحمه الله – إلى وصف تصورات الفلاسفة بأنها أشبه بحركات الأطفال وخوضهم ، فيقول: " إن سائر التصورات حتى لكبار الفلاسفة الذين يعتزُّبهم تاريخ الفكر الإنساني – تبدو محاولات أطفال يخبطون ويخوضون في سبيل الوصول إلى الحقيقة ، تلك الحقيقية التي تُعرض في القرآن عرضًا هادئًا ناصعًا قويًا بسيطًا عميقًا ، يلتقي مع الفطرة التقاءً مباشرًا دون كدٍ ولا جهد ولا تعقيد ، لأنه يطالعها بالحقيقة الأصيلة العميقة فيها ، ويفسر لها الوجود ، وعلاقتها به ، وعلاقة الوجود بخالقه تفسيرًا يضاهي ما استقر فيها ويوافقه .

وطالما عجبت وأنا أطالع تصورات كبار الفلاسفة ، وأُلاحظ العناء القاتل الذي يزاولونه وهم يحاولون تفسير هذا الوجود وارتباطاته ، كما يحاول الطفل الصغير حل معادلة رياضية هائلة ، وأمامي التصور القرآني واضحًا ناصعًا هينًا ميسرًا طبيعيًا ، لا عوج فيه ولا لف، ولا تعقيد ولا التواء ، وهذا طبيعي ، فالتفسير القرآني للوجود هو تفسير صانع هذا الوجود لطبيعته وارتباطاته .. أما تصورات الفلاسفة فهي محاولات أجزاء صغيرة من هذا الوجود لتفسير الوجود كله ،والعاقبة معروفة لمثل هذه المحاولات البائسة ، إنه عبثٌ ،وخلطٌ ، وخوضٌ .. حين يقاس إلى الصورة التي يعرضها القرآن" [٣].

---

(١) مقومات التصور الإسلامي ، ص ٤٧ – ٤٨ بتصرف .

(٢) ينظر كلامه – رحمه الله – في : مقومات التصور الإسلامي ص٤٩-٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٠ ، ٢٦٠ ، وخصائص التصور الإسلامي ، ص ٩٨ ، ١٥١ ، ١٥٣٣ ، ١٦١، ١٧٢ ١٧٥ ، في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٣١ .

(٣) في ظلال القرآن ، ٣/ ٣٣٩٤ – ٣٣٩٥٥ .

بل يرى أن ما عند الفلاسفة عمومًا ليس إلا أوهامًا وظنونًا وأساطير يقول -رحمه الله- :" وإذا كانت أوهام الجاهلية وأساطيرها عن "حقيقة الألوهية" ليست إلا ظنًا بلا برهان عليه ، فمثلها ولا شك أوهام الفلاسفة الذين يخبطون في التيه بلا دليل ! "[١].

٣- مجافاة منهج الفلسفة وعلم الكلام للمنهج القرآني :

أوضح سيد – رحمه الله – في مواضع كثيرة مجافاة منهج الفلسفة وعلم الكلام لمنهج القرآن الكريم سواءً في عرض التوحيد أوفي مخاطبة الفطرة ومن ذلك قوله – رحمه الله – : " لما كانت هناك جفوة أصيلة بين منهج الفلسفة ومنهج العقيدة، وبين أسلوب الفلسفة وأسلوب العقيدة وبين الحقائق الإيمانية الإسلامية وتلك المحاولات الصغيرة المضطربة المفتعلة التي تتضمنها الفلسفات والمباحث اللاهوتية البشرية .. فقد بدت "الفلسفة الإسلامية"– كما سميت –نشازًا كاملًا في لحن العقيدة المتناسق ! ونشأ من هذه المحاولات تخليط كثير ، شاب صفاء التصور الإسلامي ، وصغر مساحته ، وأصابه بالسطحية، ذلك مع التعقيد والجفاف والتخليط مما جعل تلك " الفلسفة الإسلامية " ومعها مباحث "علم الكلام " غريبة غربة كاملة على الإسلام وطبيعته وحقيقته ومنهجه وأسلوبه ! "[٢].

ويقرر سيد أيضًا : ظاهرة تاريخية لم تتخلف قط في تاريخ الفكر والاعتقاد وهي أنه حيثما أخذت العقيدة من الفلسفة خسرت وأصيبت بالتخليط والانحراف والتعقيد وتبدو هذه الظاهرة واضحة في تلك الصورة الكابية المعقدة الكئيبة التي تسمى " الفلسفة الإسلامية " أو " علم الكلام " أو " علم التوحيد " – البعيدة عن طبيعة التصور الإسلامي وعن طبيعة المنهج الإسلامي ذلك عندما شاء ناسٌ من " المسلمين " أن يخلطوا التصور الإسلامي بمقولات الفلسفة ! ، وأن يعقدوا المنهج الإسلامي بمنهج الفلسفة.."[٣].

واستعرض سيد قطب في كتابه " مقومات التصور الإسلامي " المنهج القرآني في

---

(١) مقومات التصور الإسلامي – سيد قطب – ص ٢٩١ بتصرف.
(٢) خصائص التصور الإسلامي ، ص ١١-١٢.
(٣) مقومات التصور الإسلامي ، ص ٤٨.

تقرير حقيقة الألوهية، وحقيقة الكون والإنسان ، مبينًا طريقة القرآن في التعريف بالإله الحق سبحانه وبصفاته ، ومقتضيات وجوده وآثار هذا الوجود في الكون ، وفي مخاطبة الفطرة وتوجيهها [(١)] ،ثم قال : " وهذا هو الفارق الأصيل بين خطاب المنهج القرآني ...وبين خطاب الفلسفة واللاهوت وعلم الكلام للذهن بالتصورات التجريدية ، أو بالجدل البارد الذي لا يصل قط إلى الإقناع المؤثر المحيي للقلوب والعقول " [(٢)] .

وينتقد منهج المعتزلة والمتكلمين المتأثرين بالفلسفة فيقول: " وكذلك تصبح البراهين الذهنية التجريدية على وجود الله - سبحانه - وهي التي اتجه إليها علماء التوحيد بتأثير منطق "أرسطو" والتي تعتمد على المقولات العقلية وحدها بعيدة في منهجها ، غريبة على المنهج الإسلامي ،وهذا المنهج القرآني ، لأنها أضعف أنواع البرهان في هذا المجال ...

ولقد أبعد المعتزلة وهم ينفون الصفات عن الله سبحانه لئلا يتعدد القدماء، لأن هذه الصفات إن كانت قديمة كذات الله تعدد القدماء ! فهذا قياس ذهني بحت لا يتعامل مع الواقع ، ولا مع المنهج القرآني - فالله سبحانه - قد وصف نفسه بصفات، ومن هذه الصفات ما يقرر وحدانيته وأزليته وأبديته وإحاطته - سبحانه - بكل شيء إلى آخر أسمائه الحسنى.. إنما تابع المعتزلة منطق " أرسطو " الذهني، وتجريدات " أفلوطين " [(٣)] المهومة ، ولم يتابعوا المنهج القرآني ، وهو المنهج الإسلامي الأصيل . وكذلك فعلوا فيما عرف في تاريخ الفكر الإسلامي بعنوان "فتنة خلق القرآن" لئلا يكون القرآن قديما فيتعدد القدماء ، والبحث على هذا النحو بجملته غريب على الفكر الإسلامي وعلى المنهج الإسلامي ، فالقرآن وحي الله وكلامه وكفى .."[(٤)] .

---

(١) ينظر : مقومات التصور الإسلامي ، فصل حقيقة الألوهية ص ١٨٩ وما بعدها و ٢٤٧ . وفي ظلال القرآن ٥/ ٢٧٢٩

(٢) مقومات التصور الإسلامي ، ص ٢٠٦ .

(٣) أفلوطين فيلسوف يوناني ،ولد سُنَّة٢٠٥م ، تأثر بفلسفة أفلاطون ، وفسر كتب أرسطو في المنطق ،وأسس المدرسة الأفلاطونية الحديثة في الإسكندرية ،مات سُنَّة ٢٧٠م ،انظر: الفهرست لابن النديم ،المكتبة التجارية القاهرة ،ب .ت ، ص٣٥٧ . .

(٤) مقومات التصور الإسلامي ، ص ٢٧٨ .

٤- رفض استعارة " القالب الفلسفي في عرض العقيدة ورفض مصطلح "الفلسفة الإسلامية" :

دعا سيد قطب إلى إلغاء ما يسمى بمصطلح الفلسفة الإسلامية وعدم استعارة القالب الفلسفي في عرض العقيدة الإسلامية ، وبين السبب بقوله : " إننا لا نحاول استعارة " القالب الفلسفي " في عرض حقائق "التصور الإسلامي" اقتناعًا منا بأن هناك ارتباطًا وثيقًا بين طبيعة " الموضوع " وطبيعة " القالب " ، وأن الموضوع يتأثر بالقالب ، وقد تتغير طبيعته ويلحقها التشويه إذا عُرض في قالب في طبيعته وفي تاريخه عداءٌ وجفوةٌ وغربةٌ عن طبيعته ! الأمر المتحقق في موضوع التصور الإسلامي والقالب الفلسفي، والذي يدركه من يتذوق هذا التصور كما هي معروضة في النص القرآني .

نحن نخالف " إقبال" في محاولته صياغة التصور الإسلامي في قالب فلسفي مستعار من القوالب المعروفة عند " العقليين المثاليين" (١) وعند " الوضعيين الحسيين" (٢).

إن العقيدة – إطلاقًا – والعقيدة الإسلامية – بوجه خاص – تخاطب الكينونة الإنسانية بأسلوبها الخاص ، وهو أسلوب يمتاز بالحيوية والإيقاع واللمسة المباشرة، والإيحاء بالحقائق الكبيرة ، التي لا تتمثل كلها في العبارة ، ولكن توحي بها العبارة، كما يمتاز بمخاطبة الكينونة الإنسانية بكل جوانبها وطاقاتها ومنافذ المعرفة فيها ، ولا يخاطب " الفكر " وحده في الكائن البشري .

أما الفلسفة فلها أسلوب آخر، إذ هي تحاول أن تحصر الحقيقة في العبارة ، ولما كان نوع الحقائق التي تتصدى لها يستحيل أن ينحصر في منطوق العبارة – فضلًا عن أن جوانب أساسية من هذه الحقائق هي بطبيعتها أكبر من المجال الذي يعمل فيه " الفكر" البشري – فإن الفلسفة تنتهي حتمًا إلى التعقيد والتخليط والجفاف ، كلما حاولت أن تتناول مسائل العقيدة ! .

ومن ثم لم يكن للفلسفة دور يذكر في الحياة البشرية العامة ، ولم تدفع بالبشرية

(١) من أمثال " هيجل ".
(٢) من أمثال " أوجست كونت ".

إلى الأمام شيئاً مما دفعتها العقيدة ، التي تقدمت البشرية على حدائها في تيه الزمن وظلام الطريق .

لا بد أن تعرض العقيدة بأسلوب العقيدة ، إذ أن محاولة عرضها بأسلوب الفلسفة يقتلها ويطفئ إشعاعها وإيحاءها ، ويقصرها على جانب واحد من جوانب الكينونة الإنسانية الكثيرة ، ومن هنا يبدو التعقيد والجفاف والنقص والانحراف في كل المباحث التي تحاول عرض العقيدة بهذا الأسلوب الغريب عن طبيعتها ، وفي هذا القالب الذي يضيق عنها .

ولسنا حريصين على أن تكون هناك " فلسفة إسلامية " ! لسنا حريصين على أن يوجد هذا الفصل في الفكر الإسلامي ، ولا أن يوجد هذا القالب في قوالب الأداء الإسلامية ! فهذا لا ينقص الإسلام شيئًا في نظرنا ، ولا ينقص " الفكر الإسلامي " بل يدل دلالة قوية على أصالته ونقائه وتميزه!" (١) .

ويقول : " وأنا أعلم أن هذا الكلام سيقابَل بالدهشة – على الأقل– سواء من كثير من المشتغلين عندنا بما يسمى " الفلسفة الإسلامية " أو من المشتغلين بالمباحث الفلسفية بصفة عامة ولكني أقرره وأنا على يقين جازم بأن " التصور الإسلامي " لن يخلص من التشويه والانحراف والمسخ ،إلاّ حين نُلقِي عنه جملة بكل ما أطلق عليه اسم " الفلسفة الإسلامية " وبكل مباحث " علم الكلام " وبكل ما ثار من الجدل بين الفرق الإسلامية المختلفة في شتى العصور أيضًا، ثم نعود إلى القرآن الكريم ، نستمد منه مباشرة " مقومات التصور الإسلامي " ، مع بيان "خصائصه " التي تفرده من بين سائر التصورات ، ولا بأس من بعض الموازنات – التي توضح هذه الخصائص – مع التصورات الأخرى – أما مقومات هذا التصور فيجب أن تستقى من القرآن مباشرة وتصاغ صياغة مستقلة .. تمامًا " (٢) .

وبعد أن قرر سيد – رحمه الله – رفضه لما سمي بالفلسفة الإسلامية ومباحث علم الكلام يوضح أن هذا الموقف نابع من ثلاث حقائق هامة هي بمثابة الأسباب وهي :

الحقيقة الأولى : أن ما وصل إلى العالم الإسلامي من مخلفات الفلسفة الإغريقية

(١) خصائص التصور الإسلامي – سيد قطب – ص ١٦ ، ٧٤
(٢) خصائص التصور الإسلامي ، ص ١٢ .

واللاّهوت المسيحي وكان له أثر في توجيه الجدل بين الفرق المختلفة وتلوينه ، لم يكن سوى شروح متأخرة للفلسفة الإغريقية ، منقولة نقلًا مشوهًا مضطربًا في لغة سقيمة ، مما ينشأ عنه اضطراب كثير في نقل هذه الشروح .

الحقيقة الثانية : أن عملية التوفيق بين شروح الفلسفة الإغريقية والتصور الإسلامي كانت تنم عن سذاجة كبيرة ، وجهل بطبيعة الفلسفة الإغريقية وعناصرها الوثنية العميقة ، وعدم استقامتها على نظام فكري واحد ، وأساسٍ منهجي واحد ، مما يخالف النظرة الإسلامية ومنابعها الأصيلة .

فالفلسفة الإغريقية نشأت في وسط وثني مشحون بالأساطير ، واستمدت جذورها من هذه الوثنية ومن هذه الأساطير، ولم تخل من العناصر الوثنية الأسطورية قط، فمن السذاجة والعبث- كان - محاولة التوفيق بينها وبين التصور الإسلامي القائم على أساس التوحيد المطلق العميق التجريد لكن المشتغلين بالفلسفة والجدل من المسلمين فهموا - خطأ - تحت تأثير ما نقل إليهم من الشروح المتأخرة المتأثرة بالمسيحية أن "الحكماء " وهم فلاسفة الإغريق - لا يمكن أن يكونوا وثنيين، ولا يمكن أن يحيدوا عن التوحيد ! ومن ثَمّ التزموا عملية توفيق متعسفة بين كلام " الحكماء " وبين العقيدة الإسلامية ، ومن هذه المحاولة كان ما يسمى "الفلسفة الإسلامية ".

الحقيقة الثالثة : أن المشكلات الواقعية في العالم الإسلامي - تلك التي أثارت ذلك الجدل منذ مقتل عثمان - رضي الله عنه - قد انحرفت بتأويلات النصوص القرآنية ، وبالأفهام والمفهومات انحرافًا شديدًا ، فلما بدأت المباحث لتأييد وجهات النظر المختلفة، كانت تبحث عما يؤيدها من الفلسفات والمباحث اللاهوتية . بحثًا مغرضًا في الغالب ، ومن ثم لم تعد تلك المصادر - في ظل تلك الخلافات - تصلح أساسًا للتفكير الإسلامي الخالص ، الذي ينبغي أن يتلقى مقوماته ومفهوماته من النص القرآني الثابت في جوٍ خالصٍ من عقابيل تلك الخلافات التاريخية .

ومن ثم يحسن عزل ذلك التراث جملة ، عن مفهومنا الأصيل للإسلام ، ودراسته دراسة تاريخية بحته ، لبيان زوايا الانحراف فيه ، وأسباب هذه الانحراف" [1] .

(١) خصائص التصور الإسلامي - سيد قطب - ص ١٢ - ١٣ .

٥- الأسباب التاريخية لنشوء علم الكلام وعلاقته بالفلسفة :

تحدث سيد قطب -رحمه الله - عن الأسباب التي كانت وراء ظهور علم الكلام في العالم الإسلامي وأيضًا العلاقة بينه وبين الفلسفة ويمكن إجمال ذلك فيما يأتي :

أ - اتساع رقعة الدولة الإسلامية واستقرارها ، وخلو حياة الناس من هموم الجهاد أدى إلى استسلامهم لموجات الرخاء والترف المادي والفكري .

ب- ظهور الخلافات الفكرية بسبب المشكلات السياسية ، والتي حاول أصحابها أن يجدوا لها سندًا من القرآن أو السُّنَّة بتأويلات صحيحة أو متعسفة .

ج - قيام عدد من الخلفاء العباسيين بترجمة الكتب اليونانية الفلسفية ، ومن أشهرهم الخليفة المأمون [١] الذي كان يغدق الأموال الجزيلة على من يقوم بأعمال الترجمة ، حتى يروى أنه كان يجزي المترجم وزن كتابه ذهبًا .

د - اختلاط المسلمين بالأمم الأخرى كالنصارى والمجوس وتأثرهم بثقافاتها وعلومها التي تقوم على الأسس الفلسفية.

هـ-عامل الدفاع والردوالحجاج الذي دفع فريقًامن علماء المسلمين إلى الخوض في هذه المباحث والعلوم

و - افتتان بعض المفكرين المسلمين بالفلسفة الإغريقية وبالمباحث اللاهوتية ، وظنهم أن الفكر الإسلامي لا يستكمل نضوجه إلا إذا ارتدى زي الفلسفة وكانت له فيه مؤلفات !! فحاولوا إنشاء " علم الكلام " على نسق المباحث اللاهوتية ومنطق أرسطو،وعملوا على استعارة القالب الفلسفي ليصبوا فيه التصور الإسلامي، كما استعاروا بعض التصورات الفلسفية وحاولوا التوفيق بينها وبين التصور الإسلامي [٢] .

وقد أجمل سيد قطب الأسباب التي كانت وراء ظهور علم الكلام بقوله : " ولقد وقع في طور التاريخ الإسلامي - أن احتكت الحياة الإسلامية الأصيلة ، المنبثقة من

---

(١) هو : الخليفة عبد الله بن هارون الرشيد ، ولد سُنَّة ١٧٠هـ ، قرأ العلم والأدب ، وأمر بتعريب كتب الأعاجم ، دعا إلى القول بخلق القرآن ، كان ذا هيبة وحزم ، غزا الروم وتوفي سُنَّة ٢١٨هـ ، انظر : سير أعلام النبلاء ١٠ / ٢٧٢ .

(٢) سيد قطب ، لمحمد توفيق بركات ، ص ٢٠٠ .

التصور الإسلامي الصحيح ، بألوان الحياة الأخرى التي وجدها الإسلام في البلاد المفتوحة ، وفيما وراءها كذلك ، ثم بالثقافات السائدة في تلك البلاد ، واشتغل الناس في الرقعة الإسلامية - وقد خلت حياتهم من هموم الجهاد ، واستسلموا لموجات الرخاء .. وجدَّت في الوقت ذاته في حياتهم من جراء الأحداث السياسية وغيرها مشكلات للتفكير والرأي والمذهبية ...فاشتغل الناس بالفلسفة الإغريقية ، وبالمباحث اللاهوتية التي تجمعت حول المسيحية ، والتي ترجمت إلى اللغة العربية - ونشأ عن هذا الاشتغال الذي لا يخلو من طابع الترف العقلي في عهد العباسيين وفي الأندلس أيضًا ، انحرافات واتجاهات غريبة على التصور الإسلامي الأصيل ، التصور الذي جاء ابتداءً لإنقاذ البشرية من مثل هذه الانحرافات ، ومن مثل هذه الاتجاهات وردها إلى التصور الإسلامي الإيجابي الواقعي ،الذي يدفع بالطاقة كلها إلى مجال الحياة ، للبناء والتعمير ،والارتفاع والتطهير ، ويصون الطاقة أن تنفق في الثرثرة ، كما يصون الإدراك البشري أن يطرح به في التيه بلا دليل .

ووجد جماعة من علماء المسلمين أن لا بد من مواجهة آثار هذا الاحتكاك ، وهذا الانحراف ، بردود وإيضاحات وجدل حول ذات الله - سبحانه - وصفاته. وحول القضاء والقدر ، وحول عمل الإنسان وجزائه ، وحول المعصية والتوبة ، إلى آخر المباحث التي ثار حولها الجدل في تاريخ الفكر الإسلامي ! ووجدت الفرق المختلفة خوارج وشيعة ومرجئة ، قدرية وجبرية ، سنية ومعتزلة .. إلى آخر هذه الأسماء .

وكذلك وجد بين المفكرين المسلمين من فتن بالفلسفة الإغريقية - وبخاصة شروح فلسفة أرسطو - أو المعلم الأول كما يسمونه- وبالمباحث اللاهوتية - وظنوا أن "الفكر الإسلامي" لا يستكمل مظاهر نضوجه واكتماله أو مظاهر أبّهته وعظمته، إلا إذا ارتدى هذا الزي - زي التفلسف والفلسفة - وكانت له فيه مؤلفات ! وكما يفتن منا اليوم ناسٌ بأزياء التفكير الغربية ، فكذلك كانت فتنتهم بتلك الأزياء وقتها ، فحاولوا إنشاء " فلسفة إسلامية " كالفلسفة الإغريقية -وحاولوا إنشاء "علم الكلام" على نسق المباحث اللاهوتية مبنية على منطق أرسطو ! .

وبدلًا من صياغة التصور الإسلامي ، في قالبٍ ذاتيٍ مستقل ، وفق طبيعته الكلية،

التي تخاطب الكينونة البشرية جملة ، بكل مقوماتها وطاقاتها ، ولا تخاطب "الفكر البشري " وحده خطابًا باردًا مصبوبًا في قالب المنطق الذهني .. بدلًا من هذا فإنهم استعاروا " القالب " الفلسفي ليصبوا فيه " التصور الإسلامي " كما استعاروا بعض التصورات الفلسفية ذاتها ، وحاولوا أن يوفقوا بينها وبين التصور الإسلامي ، أما المصطلحات فقد كادت تكون كلها مستعارة " [١] .

وبالتالي يخلص سيد – رحمه الله – إلى : " أن الجدل الكلامي الذي ثار بين علماء المسلمين إنما هو آفة من آفات الفلسفة الإغريقية والمباحث اللاهوتية عند اليهود والنصارى عند مخالطتها للعقلية العربية الصافية ، وللعقلية الإسلامية الناصعة ، وما كان لنا أن نقع اليوم في هذه الآفة ، فنفسد جمال العقيدة وجمال القرآن بقضايا علم الكلام "[٢] .

بهذه المعالم يتضح لنا موقف سيد قطب الرافض لما سمي بـ " الفلسفة الإسلامية" و"علم الكلام " وأسباب هذا الموقف وهو في جملته موافق لموقف السلف في نظرتهم للفلسفة وعلم الكلام .

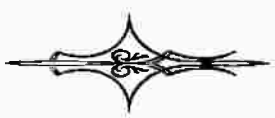

(١) خصائص التصور الإسلامي ، سيد قطب – ص ١٠ – ١١

(٢) في ظلال القرآن ، ١/ ٥٣ .

المبحث الرابع

موقفه من قضية تطور العقيدة ومقارنة الأديان

أولا : المقصود بتطور العقيدة :

نظرية تطور العقيدة من النظريات الغربية ، التي يقررها علماء مقارنة الأديان وتقوم هذه النظرية على " أن الإنسان لم يعرف العقيدة على ما هي عليه اليوم مرة واحدة ، وإنما تطورت في فترات وقرون متعاقبة شأنها شأن سائر العلوم والصناعات الإنسانية حيث عبد أول ما عبد الطوطم[١] ، ثم ترقى إلى أن وصل في النهاية إلى معرفة الله " . [٢]

والذي أوقعهم في هذا الضلال أمور منها :

١- ظنهم أن الإنسان الأول خُلق خلقًا ناقصًا ،غير مؤهل لتلقي الحقائق العظمى كاملة، فتصورهم عن الإنسان الأول تجعله أقرب إلىً الحيوان منه إلى الإنسان.

٢- ظنهم أن الإنسان اهتدى إلى العقيدة بنفسه دون معلم أو مرشد ، وإذا كان الأمر كذلك، فلا بد إذًا من أن يترقى في معرفة الله كما ترقّى في العلوم والصناعات.

٣- اعتمادهم في بحثهم في تاريخ العقيدة على الأديان المحرفة والضالة ، والتي تمثل انحراف الإنسان في فهم العقيدة ، أو ضلاله في تفسير الوجود الإنساني [٣] .

- والعجيب أن بعض الكتّاب المسلمين تأثروا بهذه النظرية الغربية ، وروجوا لها ومنهم الأستاذ عباس العقاد في كتابه الذي بعنوان :" الله " .

---

(١) الطوطم : نوع من المعبودات البدائية، قد يكون جمادًا أوحيوانًا أو نباتًا ، تتخذه العشيرة شعارًا ورمزًا لوحدتها أو قوتها ، وتعتقد أنه جدها الأعلى ومنه تناسلت ، فتقدسه بناء على ذلك ولا تسمح للنساء والغرباء بلمسه ،. انظر: الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة ، لعبد القادر شيبة الحمد ، مطبوعات الجامعة الإسلامية ، المدينة النبوية، ط١ ، ب. ت ، ص ١٢ .

(٢) انظر : كتاب " الله " لعباس العقاد ، دار الهلال ، القاهرة ، ب . ت ، ص ١٠ .

(٣) الشرك بالله تعالى ، أنواعه وأحكامه ، ماجد محمد شباله ، دار الإيمان ، الإسكندرية ، ط١ ، عام ٢٠٠٥، ص٤٩.

ثانيًا : موقف الإسلام من نظرية تطور العقيدة :

المتأمل في آيات القرآن الكريم التي تتحدث عن التوحيد ودعوة الرسل والأنبياء يجد ضلال أصحاب القول بتطور العقائد ، لأن الله سبحانه أخبر أنه خلق الإنسان منذ البداية خلقًا سويًا مكتملًا ، لغايةٍ واحدةٍ هي عبادته وتوحيده ، وجعله مؤهلًا لذلك ، وأنه عرّف الإنسان بنفسه منذ البداية ، ولم يتركه يتعرف على ربه بطريق التأمل والتجريب - كما يقول علماء مقارنة الأديان !!- بل أرسل الرسل وأنزل الكتب على مدار التاريخ لتصحيح الانحراف الذي يقع على عقائد البشر وأحوالهم كلما انحرفوا عن التوحيد الحق .

كما يقرر أيضًا أن آدم عليه السلام أهبطَ إلى الأرض موحدًا يعرف ربه ، ونشأت من ذريته أمة كانت على التوحيد الخالص ، وإنما حصل الانحراف عن التوحيد والوقوع في الشرك بعد موت آدم - عليه السلام - بنحو عشرة قرون، كما جاء عن ابن عباس - رضي الله عنهما - : " كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام " (١) .

وأن سبب هذا الانحراف هو تقديسهم للصور والتماثيل ، فكانت رسالة نوح - عليه السلام - لتصحيح الانحراف العقدي في البشرية ، وهكذا كلما انحرف البشر عن التوحيد جاءت الرسل لإعادتهم إلى جادته ، حتى خُتمت الرسالات برسالة محمد ﷺ .

كما يقرر القرآن أيضًا أن أصل دعوة الرسل جميعًا هو التوحيد والاستسلام لله -سبحانه- مما يدل دلالة واضحة على بطلان قول علماء الأديان المقارنة بتطور العقيدة، بل وضلالهم في ذلك لأن المتتبع لتاريخ العقيدة كما يذكره القرآن الكريم يجد أن الأصل في بني آدم تاريخًا وفطرة هو التوحيد وأن الشرك طارئ على البشرية (٢).

ثالثًا : موقف سيد قطب من نظرية تطور العقيدة ومقارنة الأديان :

يمكن إجمال موقف سيد قطب من قضية تطور العقيدة وبحوث علماء مقارنة الأديان عمومًا في النقاط الآتية :

١- يرى أن بحوث علماء الأديان المقارنة تقوم ابتداءً على العداء للدين ،

---

(١) تفسير الطبري ، ١/ ١٩٤ ، والأثر رواه الحاكم في المستدرك ٢/ ٥٤٦ ، وقال صحيح على شرط البخاري ووافقه الذهبي وله شاهد في حديث قتادة بسند صحيح.

(٢) الشرك بالله تعالى ، ماجد شباله ، ص ٤٩ وما بعدها .

وتستخدم منهجًا خاطئًا وبالتالي تأتي النتائج خاطئة حيث يقول سيد قطب – رحمه الله – بعد تتبعه للخط الحركي للعقيدة الإسلامية في تاريخ البشرية : " ومن هذا التتابع التاريخي – الذي يقصه الله سبحانه في كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه – يتبين خطأ المنهج الذي يتبعه علماء الدين المقارن ،وخطأ النتائج التي يصلون إليها عن طريقه .

خطأ المنهج : لأنه يتّبع خط الجاهليات التي عرفته البشرية ويهمل خط التوحيد الذي جاءت به الرسل – صلوات الله وسلامه عليهم – وهم حتى في تتبعهم لخط الجاهليات لا يرجعون إلا لما حفظته آثار العهود الجاهلية التي يحوم عليها التاريخ – ذلك المولود الحدث الذي لا يعرف من تاريخ البشرية إلا القليل ، ولا يعرف هذا القليل إلا على سبيل الظن ، والترجيح ! – وحتى حين يصلون إلى أثر من آثار التوحيد الذي جاءت به الرسالات رأسًا في إحدى الجاهليات التاريخية في صورة توحيد مشوه كتوحيد اخناتون[1] مثلًا في الديانة المصرية القديمة ، فإنهم يتعمدون إغفال أثر رسالة التوحيد – ولو على سبيل الاحتمال – وقد جاء اخناتون في مصر بعد عهد يوسف – عليه السلام – وتبشيره بالتوحيد كما جاء في القرآن الكريم ... ، وهم إنما يفعلون ذلك لأن المنهج كله إنما قام ابتداء على أساس العداء والرفض للمنهج الديني ، بسبب ما ثار بين الكنيسة الأوربية والبحث العلمي في كل صوره في فترة من فترات التاريخ ، **فبدأ المنهج وفي عزم أصحابه أن يصلوا إلى ما يكذب مزاعم الكنيسة من أساسها ، للوصول إلى تحطيم الكنيسة ذاتها ومن أجل هذا جاء منهجًا منحرفًا منذ البداية** ، لأنه يتعمد الوصول سلفًا إلى نتائج معينة ، قبل البدء في البحث ! .

وحتى حين هدأت حدة العداء للكنيسة بعد تحطيم سيطرتها العلمية والاقتصادية الغاشمة فإن هذا المنهج استمر في طريقه، لأنه لم يستطع أن يتخلص من أساسه الذي قام عليه ، والتقاليد التي تراكمت على هذا الأساس، حتى صارت من أصول المنهج !.

أما خطأ النتائج : فهو ضرورة حتمية لخطأ المنهج من أساسه ، هذا الخطأ الذي

(١) اسمه أفينوفيس ، عاش في مصر في الفترة ١٣٧٠ –١٣٥٣ ق.م ،من آثاره معبد الأقصر ، انظر : المنجد في الأعلام ،ص٧١ .

طبع نتائج المنهج كلها بهذا الطابع ،على أنه أيًا كان المنهج وأيًا كانت النتائج التي يصل إليها ، فإن تقريراته مخالفة مخالفة أساسية للتقريرات الإلهية كما يعرضها القرآن الكريم ، وإذا جاز لغير مسلمَ أن يأخذ بنتائج تخالف مخالفة صريحة قول الله سبحانه في مسألة من المسائل ، فإنه لا يجوز لباحث يقدم بحثه للناس على أنه "مسلم "أن يأخذ بتلك النتائج ، ذلك أن التقريرات القرآنية في مسألة الإسلام والجاهلية ، وسبق الإسلام للجاهلية في التاريخ البشري ، وسبق التوحيد للتعدد والتثنية .. قاطعة ، وغير قابلة للتأويل ، فهي مما يقال عنه : إنه معلوم من الدين بالضرورة، وعلى من يأخذ بنتائج علم الأديان المقارنة في هذا الأمر ، أن يختار بين قول الله سبحانه ، وقول علماء الأديان ، أو بتعبير آخر : أن يختار بين الإسلام وغير الإسلام، لأن قول الله في هذه القضية منطوقٌ وصريحٌ وليس ضمنيًا ولا مفهومًا " [١]

ويقول أيضًا:" وهذه الحقيقة- حقيقة أن أول عقيدة عُرفت في الأرض هي الإسلام القائم على توحيد الدينوية والربوبية والقوامة لله وحده .. تقودنا إلى رفض كل ما يخبط فيه من يسمونهم "علماء الأديان المقارنة"وغيرهم من التطوريين الذين يتحدثون عن التوحيد بوصفه طورًا متأخرًا من أطوار العقيدة، سبقته أطوارٌ شتى من التعدد والتثنية للآلهة، ومن تأليه القوى الطبيعية وتأليه الأرواح وتأليه الشموس والكواكب إلى آخر ما تخبط فيه هذه "البحوث" التي تقوم ابتداءً على منهج موجه بعوامل تاريخية ونفسية وسياسية معينة ، يهدف إلى تحطيم قاعدة الأديان السماوية والوحي الإلهي والرسالات من عند الله، وإثبات أن الأديان من صنع البشر، وأنها من ثم تطورت بتطور الفكر البشري على مدار الزمان" [٢].

ويقول أيضا : " .. ولكنهم - أي علماء الدين المقارن - إنما يتأثرون بمنهج في البحث يقوم على قاعدة من العداء الدفين القديم للكنيسة في أوربا - حتى ولو لم يلحظه العلماء المعاصرون - ومن الرغبة الخفية - الواعية أو غير الواعية - في تحطيم المنهج الديني في التفكير ، وإثبات أن الدين لم يكن قط وحيًا من عند الله ، إنما كان اجتهادًا من البشر ينطبق عليه ما ينطبق على تطورهم في التفكير والتجربة والمعرفة العلمية سواءً بسواء، ومن ذلك العداء القديم ، ومن هذه الرغبة الخفية

(١) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٤٤ بتصرف يسير
(٢) المصدر السابق ، ٤/ ١٨٨٢ .

ينبثق منهج علم الأديان المقارن ، ويسمى مع ذلك" علمًا " ينخدع به الكثيرون"(١).
" وهو في الأساس موجهٌ لتدمير القاعدة الأساسية لدين الله كله وهي أنه وحي من الله، وليس من وحي الفكر البشري المترقي المتطور"(٢)

ومن الأخطاء المنهجية أيضًا أن علماء الأديان المقارنة يلتقطون ظواهر معينة في تاريخ البشرية ليبنوا عليها النتائج ، ويضرب سيد مثلًا لهذا الخطأ عندهم وهو اعتبارهم السحر مرحلة من مراحل تطور العقيدة حيث يقول : " كانت أرض مصر تموج بالكهنة - الذين يزاولون أعمال السحر - ففي الوثنيات كلها تقريبًا يقترن الدين بالسحر ، ويزاول السحر كهنة الديانات وسدنة الآلهة وهذه الظاهرة هي التي يلتقطها " علماء الأديان" فيتحدث بعضهم عن السحر كمرحلة من مراحل تطور العقيدة! ويقول الملحدون منهم : إن الدين سيبطل كما يبطل السحر! وأن العلم سينهي الدين كما أنهى عهد السحر ! .. إلى آخر هذا الخبر الذي يسمونه "العلم " . (٣)

١ـ مناقشة - سيد قطب - لنظرية تطور العقيدة والرد عليها :

استعرض - سيد قطب -رحمه الله - نظرية تطور العقيدة ومراحلها كنموذج لمزالق وانحرافات بعض الكتّاب المسلمين الذين تأثروا بالنظريات الغربية المخالفة لمنهج وتقريرات القرآن الكريم من خلال ما كتبه أستاذه عباس العقاد حول تطور العقيدة .

يقول - سيد: " وينزلق بعض من يكتبون عن الإسلام مدافعين ، فيتابعون تلك النظريات التي يقررها الباحثون في تاريخ الأديان- وفق ذلك المنهج الموجه !-من حيث لا يشعرون! وبينما هم يدافعون عن الإسلام متحمسين يحطمون أصل الاعتقاد الإسلامي الذي يقرره القرآن الكريم في وضوح حاسم،ومع أننا هنا في ظلال القرآن الكريم،لا نناقش الأخطاء والمزالق في الكتابات التي تكتب عن الإسلام لكننا نُلم بنموذجٍ واحد، نعرضه في مواجهة المنهج القرآني والتقريرات

(١) في ظلال القرآن ، ٤/ ٢١٠٠.
(٢) المصدر السابق ، ٤/ ١٨٨٥.
(٣) المصدر السابق ، ٣/ ١٣٤٨ .

القرآنية في هذه القضية كتب الأستاذ العقاد في كتابه " الله " في فصل أصل العقيدة قائلًا : " ترقى الإنسان في العقائد كما ترقى في العلوم والصناعات .. فكانت عقائده الأولى مساوية لحياته الأولى وكذلك كانت علومه وصناعاته ، فليست أوائل العلم والصناعة بأرقى من أوائل الديانات والعبادات ، وليست عناصر الحقيقة في واحدة منها بأوفر من عناصر الحقيقة الأخرى . .. وينبغي أن تكون محاولات الإنسان في سبيل الدين أشق وأطول من محاولاته في سبيل العلوم والصناعات .. فالرجوع إلى أصول الأديان في عصور الجاهلية الأولى لا يدل على بطلان التدين ، ولا على أنها تبحث عن محال ، وكل ما يدل عليه أن الحقيقة الكبرى أكبر من أن تتجلى للناس كاملة شاملة في عصر واحد ، وأن الناس يستعدون لعرفانها عصرًا بعد عصر ، وطورًا بعد طور، وقد أسفر علم المقابلة بين الأديان عن كثير من الضلالات والأساطير التي آمن بها الإنسان الأول ، ولا تزال لها بقية شائعة بين القبائل البدائية ، أو بين أمم الحضارات العريقة ، ولم يكن من المنظور أن يسفر هذا العلم عن شيء غير ذلك، ولا أن تكون الديانات الأولى على غير ما كانت عليه من الضلالة والجهالة ، فهذه هي وحدها النتيجة المعقولة التي لا يترقب العقل نتيجة غيرها ، وليس في هذه النتيجة جديد يستغربه العلماء ، أو يبنون عليه جديدًا في الحكم على جوهر الدين، فإن العالم الذي يخطر له أن يبحث في الأديان البدائية ليثبت أن الأولين قد عرفوا الحقيقة الكونية الكاملة منزهة عن شوائب السخف والغباء إنما يبحث عن محال .. ثم كتب في فصل " أطوار العقيدة الإلهية " قائلًا : " يعرف علماء المقابلة بين الأديان ثلاثة أطوار عامة مرت بها الأمم البدائية في اعتقادهم بالآلهة والأرباب وهي : دور التعدد ، ودور التمييز والترجيح ، ودور الوحدانية .

- ففي دور التعدد كانت القبائل الأولى تتخذ لها أربابًا تعد بالعشرات ، وقد تتجاوز العشرات إلى المئات ، ويوشك في هذا الدور أن يكون لكل أسرة كبيرة ربٌ تعبده ،أو تعويذه تنوب عن الرب في الحضور وتقبل الصلوات والقرابين .

- وفي الدور الثاني وهو دور التمييز والترجيح تبقى الأرباب على كثرتها، ويأخذ رب منها في البروز والرجحان على سائرها، إما لأنه رب القبيلة الكبرى التي تدين لها القبائل الأخرى بالزعامة ، وتعتمد عليها في شؤون الدفاع والمعاش ، وإما لأنه

يحقق لعباده جميعًا مطلبًا أعم وألزم من سائر المطالب التي تحققها الأرباب المختلفة.

- وفي الدور الثالث تتوحد الأمة ، فتجتمع إلى عبادة واحدة تؤلف بينها مع تعدد الأرباب في كل إقليم من الأقاليم المتفرقة ، ويحدث في هذا الدور أن تفرض الأمة عبادتها على غيرها كما تفرض عليها سيادة تاجها وصاحب عرشها، ويحدث أيضًا أن ترضى من إله الأمة المغلوبة بالخضوع لإلهها ، مع بقائه وبقاء عبادته كبقاء التابع للمتبوع ... ولا تصل الأمة إلى هذه الوحدانية الناقصة إلا بعد أطوار من الحضارة تشيع فيها المعرفة ويتعذر فيها على العقل قبول الخرافات التي كانت سائغة في عقول الهمج وقبائل الجاهلية ،فتصف الله بما هو أقرب إلى الكمال والقداسة من صفات الآلهة المتعددة في أطوارها السابقة ، وتقترن العبادة بالتفكير في أسرار الكون وعلاقته بإرادة الله وحكمته العالية ، وكثيرًا ما يتفرد الإله الأكبر في هذه الأمم بالربوبية الحقة ، وتنزل الأرباب الأخرى إلى مرتبة الملائكة أو الأرباب المطرودين من الحظيرة السماوية .."[1] .

وبعد أن استعرض سيد كلام العقاد السابق حول تطور العقيدة ناقشه بقوله: " وواضحٌ سواءً من رأي الكتاب نفسه، أو مما نقله ملخصًا من آراء علماء الدين المقارن أن البشر هم الذين ينشئون عقائدهم بأنفسهم، ومن ثم تظهر فيها أطوارهم العقلية والعلمية والحضارية والسياسية، وأن التطور من التعدد إلى التثنية إلى التوحيد تطور زمني مطرد على الإجمال" ،وهذا واضح من الجملة الأولى في تقديم المؤلف لكتابه وهي قوله:" موضوع هذا الكتاب نشأة العقيدة الإلهية منذ أن اتخذ الإنسان ربًا، إلى أن عرف الله الأحد ، واهتدى إلى نزاهة التوحيد" .

والذي لا شك فيه أن الله - سبحانه- يقرر في كتابه الكريم ، تقريرًا واضحاً جازمًا شيئًا آخر غير ما يقرره صاحب كتاب " الله " متأثرًا فيه بمنهج علماء الأديان المقارنة، وأن الذي يقرره الله -سبحانه - أن آدم -عليه السلام- وهو أول البشر عَرَف حقيقة التوحيد كاملة ، وعَرَف نزاهة التوحيد غير مشوبة بشائبة من التعدد والتثنية، وعَرَف الدينونة لله وحده بإتباع ما يتلقى منه وحده ،وأنه عَرَّف بنيه بهذه العقيدة فكانت هناك أجيال في أقدم تاريخ البشرية لا تعرف إلا الإسلام دينًا ، وإلا التوحيد عقيدة ... وأنه لما طال

(١) في ظلال القرآن ٤/ ١٨٨٢- ١٨٨٤ بتصرف يسير .

الأمد على الأجيال المتتابعة من ذرية آدم انحرفت عن التوحيد، ربما إلى التثنية وربما إلى التعدد ، ودانت لشتى الأرباب الزائفة حتى جاءها نوح عليه السلام بالتوحيد من جديد ، وأن الذين بقوا على الجاهلية أغرقهم الطوفان جميعًا ولم ينج إلا المسلمون الموحدون الذين يعرفون " نزاهة التوحيد " وينكرون التعدد والتثنية وسائر الأرباب والعبادات الجاهلية ، ولنا أن نجزم أن أجيالاً من ذراري هؤلاء الناجين عاشت كذلك بالإسلام القائم على التوحيد المطلق ، قبل أن يطول عليهم الأمد ، ويعودوا إلى الانحراف عن التوحيد من جديد..وأنه هكذا كان شأن كل رسول:﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾[1] .

" والذي لا شك فيه أن هذا شيءٌ ، والذي يقرره علماء الأديان المقارنة ويتابعهم فيه مؤلف كتاب " الله " - أي العقاد - شيءٌ آخر ، وبينهما تقابل تام في منهج النظر وفي النتائج التي ينتهي إليها .. وآراء الباحثين في تاريخ الأديان ليست سوى نظريات يعارض بعضها بعضًا ، فهي ليست الكلمة النهاية حتى في مباحث البشر الفانين! "[2] .

وقد تعرض سيد قطب -رحمه الله - في أكثر من موضع لقضية تطور العقيدة وبيان ضلالها ، حيث نجده يستعرض تاريخ الأنبياء من لدن آدم - عليه السلام -ويقرر بأن آدم هبط إلى الأرض مسلمًا لله متبعًا لهداه ، وما من شك أنه علَّم بنيه الإسلام جيلًا بعد جيل،وأن الإسلام هو أول عقيدة عرفتها البشرية في الأرض ، حيث لم تكن معها عقيدة أخرى ، فإذا نحن رأينا قوم نوح - وهم من ذرية آدم بعد أجيال لا يعلم عددها إلا الله - قد صاروا إلى هذه الجاهلية ... فلنا أن نجزم أن هذه الجاهلية طارئة على البشرية بوثنيتها وأساطيرها وخرافاتها وأصنامها وتصوراتها وتقاليدها جميعًا ، وأنها انحرفت عن الإسلام إليها بفعل الشيطان المسلط على بني آدم ، وبفعل الثغرات الطبيعية في النفس البشرية ، تلك الثغرات التي ينفذ منها عدو الله وعدو الناس، كلما تراخوا عن الاستمساك بهدي الله ، وإتباعه وحده ، وعدم اتباع غيره معه في كبيرة ولا صغيره ولقد خلق الله الإنسان ومنحه قدرًا من

(١) سورة الأنبياء ، الآية ٢٥ .
(٢) في ظلال القرآن ، ٤/ ١٨٨٤- ١٨٨٥ .

الاختيار- هو مناط التكليف - وبهذا القدر يملك أن يستمسك بهدى الله وحده فلا يكون لعدوه من سلطان عليه، كما يملك أن ينحرف - ولو قيد شعره - عن هدى الله إلى تعاليم غيره ، فيجتاله الشيطان حتى يقذف به - بعد أشواط إلى مثل تلك الجاهلية الكالحة التي انتهت إليها ذراري آدم - النبي المسلم - بعد تلك الأجيال التي لا يعلمها إلا الله "[١] .

وفي كتاب " مقومات التصور الإسلامي" يعرض سيد قطب قصة التوحيد في الرسالات ويقرر: " أن آدم - عليه السلام - أبو البشر .. عرف إلهه الواحد .. الله رب العالمين ، ودان له بالتوحيد ، وعرف أنه مستخلف في الأرض عنه ، وأنه مأمور باتباع هديه وحده ، وشريعته وحدها هو وذريته من بعده ...[٢]

ونوح -عليه السلام - أبو البشر الثاني .. عرف إلهه الواحد ، الهادي الرحيم ،عالم الغيب والشهادة ،القاهر فوق عباده ، الذي إليه المرجع والمصير،وعرف أن توحيد الله هو الآصرة التي انقطعت بينه وبين ولده .. فلم يعد من أهله ، وكانت قضية هذا التوحيد هي التي دارت عليها المعركة ، وانتهت بالطوفان ، فلم ينج بعدها إلا الموحدون ..[٣] .

وهود - عليه السلام - عرف إلهه الواحد ، الفاطر الرازق ، واهب القوة ، القاهر الآخذ بناصية كل دابة ،الذي يستخلف في أرضه من يشاء ، وأرسله الله إلى قومه بهذا التوحيد ، ودارت المعركة على هذه القضية ، وعليها كان التحدي ، وفيها كانت النهاية[٤] .

وصالح - عليه السلام - كذلك عرف إلهه الواحد، الخالق المستخلف عباده في الأرض ... وأرسل إلى قومه بهذا التوحيد، وعلى هذه القضية دارت المعركة، وكانت النجاة للموحدين والدمار للمشركين[٥]

وشعيب - عليه السلام - عرف إلهه الواحد الرازق ، الموفق الرحيم .. وبهذا التوحيد أرسل إلى قومه الذين كانوا يعرفون مصائر عادٍ وثمودَ وقومِ لوطٍ في الجزيرة العربية

(١) في ظلال القرآن ٤/ ١٨٨٢ .
(٢) ينظر الآيات ١٠ - ٣٦ من سورة الأعراف .
(٣) ينظر الآيات ٢٥ - ٤٨ من سورة هود .
(٤) ينظر الآيات ٥٠ - ٦٠ من سورة هود .
(٥) ينظر الآيات ٦١ - ٦٨ من سورة هود .

قريبًا منهم .. لكنهم انحرفوا عن التوحيد وهلك من هلك ونجا من نجا ... وعُرف التوحيدُ من جديدٍ "[١] .

وإبراهيم - عليه السلام - أبو الأنبياء ، وأبو الأمة الإسلامية ، وأبو نبيها الكريم - عليه صلوات الله وسلامه - عرف الله الواحد ، بصفاته التي عرفته بها الأمة المسلمة في آخر الزمان ، وأقام لهذا التوحيد منارته الباقية - بيت الله العتيق - وعلّم بنيه إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ويوسف هذا التوحيد[٢] .

وبعقيدة التوحيد هذه أُرسل موسى - عليه السلام - في نسل يعقوب ، وعليها دارت المعركة وأنجى الله الموحدين وأغرق أعداءهم[٣]. ثم وقع الانحراف في بني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام .

وبالتوحيد دان عيسى - عليه السلام - وكان آخر أنبياء بني إسرائيل[٤] ثم وقع الشرك بعد رفعه وحُرِّف دينه ، فلا عبرة إذن بالانحرافات والانتكاسات التي وقعت في عقائد النصارى من بعده ، ولا علاقة لها بخط العقيدة في الرسالات السماوية .

وإلى هذا التوحيد أمر رسول الله ﷺ أن يدعوهم : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾[٥] .[٦].

وهكذا تتجلى في المنهج القرآني قصة قضية التوحيد في تاريخ البشرية كله ، وكيف كان التوحيد قاعدة دين الله كله في الرسالات كلها ، على مدار العصور والقرون ، فيتبين من هذا الخط الذي توسعنا عامدين في عرضه في القرآن الكريم :

أولا : أهمية هذا الأصل ، باعتباره قاعدة التصور الإسلامي .

ثانيًا : خطأ منهج علم الأديان المقارنة عن (تطور) عقيدة التوحيد ، بدون

---

(١) ينظر الآيات : ٨٤- ٩٥ من سورة هود .
(٢) ينظر الآيات : ٦٩- ٨٩ من سورة الشعراء ، ١٢٤- ١٣٣ من سورة البقرة ، ٣-٤٠ من سورة يوسف .
(٣) ينظر الآيات : ٢٨- ٤٦ من سورة غافر ، والآيات ١٠ - ٦٨ من سورة الشعراء .
(٤) ينظر الآيات : ٤٥-٩٥ من سورة آل عمران .
(٥) سورة آل عمران ، الآية ٦٤
(٦) ينظر : مقومات التصور الإسلامي ٨٥- ٩٧ بتصرف .

استثناء الرسالات السماوية، بل بالإغفال المتعمد لاستقلال هذه الرسالات عما صاغته عقول البشرية من ركام العقائد والتصورات ، واعتبار ما جاءت به الرسالات مجرد تطور في المحاولات البشرية في مجال الاعتقاد.

ثالثًا: خطر هذا المنهج على العقيدة الصحيحة، لمناقضته للمنهج القرآني ، ومخالفته عن قول الله في هذه القضية ، وخطورة وقوع بعض الشارحين للإسلام أو المدافعين عنه في هذا المزلق الذي تحفره الداروينية والمناهج الأوربية الشاردة من الكنيسة ، ثم قراءة الراغبين في الإسلام لمؤلفات هؤلاء المنزلقين ، وهم يحسنون الظن بهم ،لأنهم يرونهم متحمسين للإسلام ، مدافعين عنه ، فينزلقون وراءهم في منهج مناقض لمنهج القرآن ... والأمر هنا أمر عقيدة .. فما يؤمن بالله من لا يصدق قوله في قضية العقيدة .. وما يؤمن بالقرآن من يتخذ منهجًا مناقضًا لمنهج القرآن ! .

لقد كانت قضية توحيد الله – سبحانه –وإفراده بالألوهية، والعبودية له وحده بلا شريك، والدينونة له بلا منازع،هي قضية الاعتقاد الأولى والحقيقية، في جميع الرسالات،في جميع العصور.

لقد كانت عقيدة التوحيد هبةً خالصةً من الله للبشر ، عرَّفها لهم عن طريق الرسل، ولم تكن من صنع هؤلاء البشر، ولا هم تدرجوا في كشفها حتى كشفوها، كما تدرجوا في العلوم والصناعات حتى أتقنوها .. فقد جاءتهم في الرسالات السماوية منذ فجر التاريخ كاملة حاسمة .

وجائز أن يقال : إن البشرية تقبلت عقيدة التوحيد التي جاءت بها الرسالات تدريجيًا . رسالة بعد رسالة ، وكانت كل رسالة تترك في ضميرها استعدادًا أكبر لقبول عقيدة التوحيد ، وكان الترقي في هذا الاستعداد يتطور وينمو كلما تهيأ لها مزيدٌ من المعرفة والتجربة والنمو الاجتماعي والسياسي ، وكان عدد أتباع الرسل يزداد ، ومجال التوحيد يتسع ، وآثاره في الحياة الواقعية للبشرية تنمو ، كما تنمو آثاره في ضمائرها وأخلاقها ..

جائز أن يقال هذا – بتحفظ وليس على إطلاقه – لأن الخط – كما قلنا من قبل– لم يكن مطردًا دائما ولا صاعدًا دائما ، وكانت هنالك دائمًا انتكاسات وارتكاسات

وكان الخط صاعدًا عند الرسالة هابطًا عندما يطول الأمد .. ودليلنا هذا الذي فيه خلائف الأمة المسلمة اليوم وصورة التوحيد في مجالاته كلها ، بينها وبين صورته عند الجماعة المسلمة الأولى فرقٌ هائلٌ بعيدٌ ، يجعل الأمة المسلمة على دين، وخلائفها هذه على دين آخر ، لا علاقة له بالإسلام إلا في الاسم فلكل منهما ملة ، ولكل منهما دين ! ولكن القول على ذلك النحو جائز ، ولا مناقضة فيه للمنهج القرآني .

أما غير الجائز فهو أن يقال : إن عقيدة التوحيد لم تعرف إلا بعد أن قطعت إليها البشرية أشواطًا من " التطور " .. كأن عقيدة التوحيد كانت صناعة بشرية : - وهي هبةٌ إلهيةٌ - وكأن الرسل لم يكونوا إلا صورة للتطور البشري في العقائد التي جاءوا بها - متطورة - ولم يكن يوحى إليهم ! أو كأن الله - سبحانه - كان يوحي إليهم بالاعتقاد في الأرواح والطواطم والآلهة المتعددة ، ثم يوحي إلى المتأخرين منهم فقط بعقيدة الإله الواحد ! وذلك وقت استعداد البشر في الأطوار المختلفة لإدراك صورة من صور الاعتقاد ! .

وما كان الأمر كذلك أبدًا .. إنما كانت عقيدةً واحدةً ، وديناً واحدًا ، قاعدته هي هذه : توحيد الإلوهية وإفراد الله سبحانه بها ،وتعبيد الناس لربهم الواحد بلا شريك ، ثم تختلف الشرائع وتنمو حتى تكتمل في الرسالة الأخيرة .. أما أصل العقيدة فلا تغيير في جوهره ، لأنه بدونه لا تكون عقيدة في الله ولا تستقيم .."[1] .

وبعد تقريره لما سبق يقول : " وحقيقة أن أول عقيدة عُرفت في الأرض هي الإسلام القائم على توحيد الدينونة والربوبية والقوامة لله وحده ، تقودنا إلى رفض كل ما يخبط فيه من يسمونهم " علماء الأديان المقارنة " وغيرهم من التطوريين الذين يتحدثون عن التوحيد بوصفه طورًا متأخرًا من أطوار العقيدة ، سبقته أطوار شتى من التعدد والتثنية للآلهة ، ومن تأليه القوى الطبيعية وتأليه الأرواح ، وتأليه الشموس والكواكب.. إلى أخر ما تخبط فيه هذه البحوث التي تقوم ابتداءً على منهج موجه بعوامل تاريخية ونفسية وسياسية معينة ، يهدف إلى تحطيم قاعدة الأديان السماوية والوحي الإلهي والرسالات من عند الله ، وإثبات أن الأديان من صنع البشر ، وأنها من ثَم تطورت بتطور الفكر البشري على مدار الزمان ! .

---

(١) مقومات التصور الإسلامي ،ص ٩٨- ١٠٠ .

وينزلق بعض من يكتبون عن الإسلام مدافعين ، فيتابعون تلك النظريات التي يقررها الباحثون في تاريخ الأديان - وفق ذلك المنهج الموجه - من حيث لا يشعرون ! وبينما هم يدافعون عن الإسلام متحمسين يحطمون أصل الاعتقاد الإسلامي الذي يقرره القرآن الكريم في وضوح حاسم حين يقرر أن آدم - عليه السلام - هبط إلى الأرض بعقيدة الإسلام ، وأن نوحًا - عليه السلام - واجه ذراري آدم الذين اجتالتهم الشياطين عن الإسلام إلى الجاهلية الوثنية بذلك الإسلام نفسه .. القائم على التوحيد المطلق.. وأن الدورة تجددت بعد نوح فخرج الناس من الإسلام إلى الجاهلية وأن الرسل جميعًا أرسلوا بعد ذلك بالإسلام.. القائم على التوحيد المطلق .. وأنه لم يكن قط تطور في أصل الاعتقاد - إنما كان الترقي والتركيب والتوسع في الشرائع المصاحبة للعقيدة الواحدة- وأن ملاحظة ذلك التطور في العقائد الجاهلية لا يدل على أن الناس صاروا إلى التوحيد بناء على تطور في أصل العقيدة ،إنما يدل على أن عقيدة التوحيد على يد كل رسول كانت تترك رواسب في الأجيال التالية - حتى بعد انحراف الأجيال عنها - ترقي عقائدهم الجاهلية ذاتها ، حتى تصير أقرب إلى أصل التوحيد الرباني ، أما عقيدة التوحيد في أصلها فهي أقدم في تاريخ البشرية من العقائد الوثنية جميعًا ! وقد وجدت هكذا كاملة منذ وجدت، لأنها ليست نابعة من أفكار البشر ومعلوماتهم المترقية ،إنما هي آتية لهم من عند الله سبحانه ، فهي حق منذ اللحظة الأولى ، وهي كاملة منذ اللحظة الأولى ..

هذا ما يقرره القرآن الكريم ،ويقوم عليه التصور الإسلامي ، فلا مجال - إذن - لباحث مسلم - وبخاصة إذا كان يدافع عن الإسلام ! أن يَعْدل عن هذا الذي يقرره القرآن الكريم في وضوح حاسم إلى شيء مما تخبط فيه نظريات علم الأديان المقارنة .. النابعة من منهج موجه كما أسلفنا .. "[1] .

"وما من شك أنه حين يقرر الله - سبحانه - أمرًا ويبينه في كتابه الكريم هذا البيان القاطع ، ويقرر غيره قولا آخر فان قول الله يكون أولى بالإتباع ،وخاصة ممن يدافعون عن الإسلام ، فهذا الدين لا يخدم بنقض قاعدته الاعتقادية التي تقوم على أن التوحيد هو الأصل في تاريخ البشرية ، كما أنه لا يخدم بترك تقريراته إلى تقريرات علماء الأديان

(١) في ظلال القرآن ٤/ ١٨٨٢ - ١٨٨٣.

المقارنة الذين يعملون وفق منهج موجه لتدمير القاعدة الأساسية لدين الله كله ، وهي أنه وحي من الله ، وليس من وحي الفكر البشري المترقي المتطور" (١) .

ومن خلال ماسبق يتبين لنا بوضوح موقف سيد قطب - رحمه الله - من قضية تطور العقيدة وبحوث علماء الأديان المقارنة من الغربيين أو من تأثر بهم من المسلمين والذي يقوم على :

١- بيانه لحقيقة عداء علماء الأديان المقارنة في بحوثهم وكتاباتهم للدين وحرصهم على تحطيم أسس العقيدة الإسلامية .

٢- بيانه لخطأ نظرية تطور العقيدة سواءً في المنهج التي قامت عليه ، أو في النتائج التي توصلت إليها .

٣- تقريره لمنهج القرآن في عرض العقيدة وبيان مخالفة نتائج بحوث علماء الأديان المقارنة لما يقرره القرآن في قضية تاريخ العقيدة .

٤- نقده الشديد لبعض الكتَّاب المسلمين الذين تأثروا ببحوث علماء الأديان المقارنة الغربيين، ورده عليهم من خلال استعراض خط العقيدة التاريخي في القرآن الكريم، وجعل ما يقرره القرآن هو الفيصل في هذا الباب .

٥- تحذيره من الأخذ عن غير المسلمين ، وبيانه لمدى تغلغل مناهج الفكر الغربي في أوساط المفكرين المسلمين (٢) .

والخلاصة : من خلال ما سبق تبين لنا أن سيد قطب - رحمه الله - كان في الجملة موافقًا لمنهج السلف في طريقة تلقي وفهم وتقرير العقيدة والاستدلال عليها ، حيث رفض مناهج المتكلمين والفلاسفة وعلماء مقارنة الأديان ، وبيّن مخالفتها لمنهج القرآن في تقرير العقيدة ، وإن كان قد وقع في هذا الباب في خطأ جزئي فيما يتعلق بموقفه من حديث الآحاد.

---

(١) المصدر السابق ، ٤/ ١٨٨٥ بتصرف .

(٢) للتوسع في معرفة موقف سيد من تطور العقيدة بنظر أيضا : في ظلال القرآن ١/ ٢١٥ ، ٢/ ١٠٩٦ ، ١١٤٤-١١٤٧ ، ٣/ ١٣٠٤-١٣٠٨ ، ١٣٣٠ ، ١٣٤٦ / ١٣٤٨ ، ١٣٩٠ ، ٤/ ١٨٨٢ ، ١٨٨٥ ، ١٩٤٤ ، ١٩٦٣ ، ١٩٨٨ ، ٢١٠٠ ، ٦ / ٣٥٨٤ ، ومقومات التصور الإسلامي ، ص ٢٦ ، ٨٣ - ١٠٠ .